الباب التاسع عشر

الملوك الفلاسفة

٩٦ م – ١٨٠

الفصل الأول

نـــيرڤا

اختفى من تاريخ الملكية الرومانية مبدأ وراثة العرش بعد اغتيال دومتيان قرناً من الزمان : ذلك أن مجلس الشيوخ لم يعترف قط بأن الوراثة وسيلة لارتقاء العرش ، والآن بعد ١٢٣ سنة من خضوعه لهذا المبدإ ، عاد فأثبت سلطانه ، ورشح عضواً من أعضائه ليكون زعيما وإمبراطوراً ، كما كان يختار ملوك رومة بداية عهدها . وكان هذا عملا جريئاً ينطق بالشجاعة ولا يستطاع فهمه إلا إذا ذكرنا أن حيوية الأسرة الفلاڤية قد نضب معينها ، في نفس الجيل الذى شهد تجدد حيوية مجلس الشيوخ بما طعم به من دم إيطالى وإقليمى .

وكان ماركس ككسيوس نيرڤا فى السادسة والستين من عمره حين فوجئ بدعوته إلى هذا المركز السامى . ويظهره تمثاله الضخم المحفوظ فى متحف الفاتيكان رجلا ذا وجه وسيم تتجلى فيه صفات الرجولة الكاملة ، ويتعذر على من يشاهده أن يعتقد أن صاحبه كان من أئمة فقهاء القانون المبجلين ، وأنه كان رجلا محموداً ، وشاعراً رقيقاً ظريفاً ، حياه مواطنوه فى وقت من الأوقات ولقبوه « تيبلس زماننا »(1) . ولعل مجلس الشيوخ قد اختاره لشيبته وبعده عن الأذى ؛ وكان يستشر هذا المجلس

فى جميع خططه السياسية ، وحافظ على العهد الذى قطعه على نفسه بألا يكون قط سبباً فى موت أى عضو من أعضائه . وقد أعاد إلى البلاد من نفاهم منها دومتيان ورد إليهم أملاكهم ، وخفف من رغبتهم فى الانتقام من أعدائهم ، ووزع على الفقراء ما قيمته ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس من الأراضى الزراعية ، وأنشأ الأُلمنتا — وهى رصيد من مال الدولة — ليشجع بها تناسل الفلاحين ويمدهم بما يحتاجونه من المال . وألغى عدداً كبيراً من الضرائب وخفض ضريبة التركات ، وأعفى اليهود من الجزية التى فرضها عليهم ڤسپازيان ودعم فى الوقت نفسه مالية الدولة بمراعاة الاقتصاد فى بيته وحكومته . وكان يعتقد بحق أنه كان يراعى العدل فى معاملته جميع الطبقات ؛ ومن أقواله فى هذا المعنى : « إننى لم أفعل شيئاً يحول بينى وبين إلقاء منصبى الإمبراطورى عن كاهلى وعودتى آمنا مطمئنا إلى الحياة الخاصة »(٢). ولكن حدث بعد عام من توليته أن حاصر الحرس البريتورى قصره ، وطالبه بتسليم قتلة دومتيان ، وقتل عدداً من مستشارى نيرڤا . وكان هذا الحرس قد فوجئ باختياره لمنصبه ، واستاء من سياسة الاقتصاد التى كان يسير عليها . ومد نيرڤا عنقه لسيوف الجند ولكنهم أبقوا عليه . وآلمه هذا الإذلال فأراد أن ينزل عن العرش ، ولكن أصدقاءه أقنعوه أن يقتدى بأغسطس فيتبنى رجلا يرضى عنه مجلس الشيوخ ، ويخلفه على العرش ، ويكون فى مقدوره أن يحكم الإمبراطورية وأن يحكم الحرس أيضاً . وأعظم ما تدين به رومة لنيرڤا أنه أختار ماركس ألپيوس ترايانس Marcus Ulpius Trajanus خلفاً له . وتوفى بعد ذلك بثلاثة أشهر فى عام ٩٨ بعد حكم دام ستة عشر شهراً .

وكان معنى مبدإ التبنى الذى عاد سيرته الأولى بهذه الطريقة الغير المنتظرة أن يشرك كل إمبراطور من الأباطرة ، حين يحس بالضعف يدب فى قواه ، معه فى الحكم أقدر من يستطيع أن يجده من الرجال ، وأكثرهم

جدارة بهذا المنصب الخطير ، حتى إذا وافاه الأجل لم تتعرض البلاد إلى أن يجلس على عرشها رجل يرفعه الحرس البريتوري وإلى ما فى هذا من سخف ، أو يرث هذا العرش وارث طبيعى ولكنه غير جدير به ، أو أن تتعرض إلى حرب أهلية بين المتنافسين على العرش . وكان من المصادفات الطيبة أن تراجان ، وهدريان ، وأنطونينس بيوس لم يكن لهم أبناء ، وإن كان فى مقدور كل واحد منهم أن يعمد إلى مبدإ التبنى من غير أن يحط من شأن أبناء له أو يكشف عن نقص فى الحب الأبوى . ولقد كسبت رومة من هذا المبدإ ، طوال المدة التى طبق فيها ، طائفة من الأباطرة العظام خلف بعضهم بعضا على العرش ، وكانوا خير من شهده العالم من الحكام وأجلهم شأناً .

الفصل الثانى

تراچان

تلقى تراچان نبأ جلوسه على العرش وهو يتولى قيادة جيش رومانى فى كولونى Cologne ؛ فلما أن تلقاه واصل عمله عند الحدود وأجل عودته إلى رومة ما يقرب من عامين . وكان مولد تراچان فى أسپانيا من أسرة إيطالية استوطنت تلك البلاد من زمن بعيد ، وقد وصلت أسپانيا الرومانية على يديه وعلى يد هدريان إلى الزعامة السياسية ، كما ارتفعت على يدى سنكا ، ولوكان ، ومارتيال إلى الزعامة الأدبية . وكان هو بداية سلسلة طويلة من القواد يبدو أن مولدهم وتدريبهم فى الأقاليم أكسبهم قوة الإرادة التى فقدها العنصر الرومانى الأصيل . ولم تحتج رومة على ارتقاء رجل من رجال الأقاليم عرش الإمبراطورية ، وكان عدم احتجاجها هذا فى حد ذاته حادثاً خطيراً ومؤذناً بتطور جديد فى التاريخ الرومانى .

وظل تراچان قائداً حتى بعد جلوسه على العرش . فقد كان ذا قامة عسكرية ، وكان مظهره مظهر السادة المؤمرين ، وكانت ملامحه قوية وإن لم تكن بادية متميزة . كان طويل القامة ، ممتلئ الجسم ، وكان من عادته أن يسير مع جنوده على قدميه ، وأن يخوض بعتاده الحربى الكامل ما يضطرون إلى عبوره من مئات الأنهار ؛ وكان رجلا شجاعا يصبر على الألم ولا يفرق بين الحياة والموت . ولما قيل له إن لوسنيوس سورا كان يأتمر به ، ذهب إلى منزل سورا ، وأكل من كل ما قدم إليه دون أن يفحص عما يأكل ، وحلق له حلاق سورا(٤) . ولم يكن تراچان فيلسوفاً بأى معنى فنى من معانى هذا اللفظ . وكان من عادته أن يصحب معه فى عربته ديو كريسستوم Dio Chrysostom الخطيب « صاحب الفم الذهبى » ليتحدث إليه فى الفلسفة ، ولكنه يعترف بأنه لم يكن يفهم كلمة واحدة

الامبراطورية الرومانية
فى عهد تراجان
المحيط الاطلنطى
الاوقيانوس الالمانى
المانيا
سرماتيا
داشيا
البحر الاسود
(بحر اليوكسين)
البحر المتوسط
البحر الابيض
البحر التسكانى
البحر الادرياتى
اكوتانيا
لجدونيا
بلجيكا
جرمانيا السفلى
كولونيا
نوركم
بانونيا
دلماشيا
موشيا
تراقية
مقدونية
اخية
اسية
بيثينيا
غلاطية
كبدوكية
قيليقية
قبرص
كريت
صقلية
سردانيا
قورسقة
جزائر البليار
روما
ايطاليا
بيزنطة
ارمينية
ميديا
اتروباتين
اكباتانا
(همذان)
اشور
بلاد النهرين
بلاد السلوقيين
البحر الفارسى
سوريا (الشام)
الاسكندرية
هليوبوليس
منفيس
مرمريكا
موريتانيا
جيتوليا
افريقية
قرطاجنة
نوميديا
الصعيد
اثيوبيا
بلاد العرب
البحر الاحمر
لوزيتانيا
بيتكا
ترّاكونية
جليقية واستوريا
لندن
بريطانيا
ايرلندة
بحر قزوين
بحر قزوين
طنجة
قادس
قرطاجنة
شمال
جنوب
شرق
غرب

(شكل ١٠)

obeikandl.com

مما يقوله ديو(٥) — وبذلك خسرت الفلسفة الشيء الكثير . وكان صافى الذهن صريحاً ليس فيه التواء ، وكان ما نطق به من الهراء قليلا إلى أبعد حد ؛ وكان فيه ما فى سائر البشر من اغترار بالنفس ، ولكنه كان مبرأ من العجرفة والادعاء ولم يكن يتخذ منصبه السامى وسيلة للتعاظم على الناس أو أداة ينفع بها نفسه ، فكان يجلس مع أصدقائه على الطعام ويصحبهم فى الصيد ، ويشرب معهم بكثرة ، ويرتكب ما يرتكبونه من لواط فى بعض الأحيان ، كأنه يريد بذلك ألا يخالف عادات زمانه ، وترى رومة من مفاخره التى يستحق عليها الثناء أنه لم يسئ قط إلى زوجته پلوتينا بأن يعشق امرأة أخرى .

ولما وصل تراچان إلى رومة وهو فى الثانية والأربعين من عمره كان قد بلغ من النضوج العقلى غايته ، وسرعان ما اكتسب ببساطته ودماثة أخلاقه ، واعتداله ، قلوب الشعب الذى جرب الاستبداد من عهد قريب . واختار مجلس الشيوخ پلنى الأصغر ليرحب به . والقى ديو كريستوم أمام الإمبراطور فى الوقت نفسه خطبة فيما يجب على الملوك فى نظر الفلسفة الرواقية . ولكن پلنى وديو فرقا بين السيادة والزعامة فقالا إن الزعيم يجب ألا يكون سيد الدولة ، بل خادمها الأول ، ومندوب الشعب لتنفيذ إرادته ، ينتخبه عن طريق ممثليه أعضاء مجلس الشيوخ . « ومن أراد أن يؤمر على الناس جميعاً ، وجب أن يختاروه جميعاً »(٦) واستمع الناس إلى أقوالهما ورحبوا بها .

ولم تكن هذه البدايات الطيبة جديدة فى التاريخ ، ولكن الذى أدهش رومة أن تراچان أوفى بهذا الوعد إلى حد بعيد ، فأعطى أعوانه ورفاقه القصور الريفية متى كان أسلافه يقيمون فيها أسابيع قليلة فى كل عام ، ويقول پلنى « إنه لم يكن يرى أن شيئاً ما ملك له إلا إذا كان أيضاً ملكاً لأصدقائه »(٧) . وكان هو نفسه بسيطاً فى معيشته بساطة ڤسپازيان ، فكان يسأل الشيوخ رأيهم فى كل المسائل ذات البال ، وقد تبين أن فى وسعه أن يكون ذا سلطة مطلقة إذا لم يستخدم ألفاظ

ذوى السلطة المطلقة . وكان مجلس الشيوخ يرضى أن يترك له مقاليد الحكم إذا راعى الشكليات التى تحفظ له مكانته وهيبته ؛ وكان هذا المجلس ، كما كانت رومة كلها ، يحب فى ذلك الوقت الأمن والطمأنينة حبا لا يستطيع معه أن يحفظ بحريته . ولعله كان يسره أيضاً أن يرى تراجان رجلا محافظاً لا ينوى أن يشترى رضاء الفقراء بمال الأغنياء .

وكان تراجان إداريا قديراً لا يمل من العمل ، حسن التدبير لشئون المال ، وقاضياً عادلا . ويعزو إليه *موجز* جستنيان المبدأ القائل « إن فرار المجرم من العقاب أفضل من عقاب البرىء »(٨) . وقد استطاع بالإشراف الدقيق على مصروفات الدولة (وبعض الفتوح التى عادت عليها بالربح) أن يتم كثيراً من المنشآت العامة من غير أن يزيد أعباء الضرائب ، بل إنه فعل عكس هذا فخفض الضرائب ، ونشر على الشعب اعتمادات الميزانية ليعرف إيرادات الحكومة ونفقاتها ، فيبحثها وينتقدها . وكان يطلب إلى الشيوخ الذين يستمتعون بصحبته أن يكون إخلاصهم فى أعمالهم الإدارية مماثلا لإخلاصه أو قريبا كل القرب منه . واشترك الأشراف فى مناصب الدولة وعملوا فيها بجد ، ولم يكتفوا بأن يقضوا أوقاتهم فى اللهو واللعب . وإن ما بقى لدينا من الرسائل المتبادلة بينهم وبين تراجان ليوحى بأنهم كانوا يعملون بجد وعناية تحت قيادته الرقيبة الملهمة . وكانت مدن كثيرة فى بلاد الشرق قد أساءت التصرف فى أموالها حتى أشرفت على الإفلاس ، فأرسل لها تراجان حراساً أمناء أمثال پلنى الأصغر ليساعدوها على إصلاح أمرها . وأضعف هذا العمل استقلال البلديات وقلل من شأن أنظمتها ، ولكنه عمل لم يكن منه بد ، فقد قضى الحكم الذاتى على نفسه بإسرافه وعجزه .

وكان تراجان قد نشأ فى مهاد الحرب ، فكان لذلك استعماريا صريحا يفضل النظام على الحرية ، والقوة على السلم . ولم يكد يمضى على قدومه إلى رومة عام

واحد حتى خرج لفتح داشيا . وكانت داشيا فى ذلك الوقت تنطبق حدودها بوجه عام على حدود رومانيا الحاضرة ، وكانت تمتد كقبضة اليد فى قلب ألمانيا ، فكانت إذا استولى عليها تصبح عظيمة النفع من الوجهة العسكرية فى الكفاح الذى كان تراچان يتوقع قيامه بين الألمان وإيطاليا . يضاف إلى هذا أن ضمها إلى الدولة الرومانية يمكنها من الإشراف على الطريق الذى يسير على ضفتى نهر الساف إلى ملتقاه بنهر الدانوب ومن ثم إلى بيزنطة — وهو طريق برى نحو الشرق لا يمكن تقدير قيمته ؛ دع عنك ما فى داشيا من مناجم الذهب . وأعد تراچان لفتحها حملة عسكرية رسم خطتها بمهارة فائقة ونفذها بأكبر سرعة ، فقاد فيالقه ، وتغلب على كل ما اعترضه من الصعاب والمقاومة ، حتى وصل إلى سرمزجتوسا Sarmizegetusa عاصمة تلك البلاد وأرغمها على الاستسلام . وقد ترك لنا مثال رومانى صورة رائعة لدسبالس Decebalus ملك داشيا — ينم وجهه فيها عن قوة الجسم ومتانة الخلق . وثبته تراجان على عرشه ، وجعله قيلا من أقياله ، ثم عاد إلى رومة (١٠٢) ؛ ولكن دسبالس لم يلبث أن نقض عهده واستعاد استقلاله ؛ فسير تراچان جيشه إلى داشيا (١٠٥) ، وعبر الدانوب على جسر كان من أعجب المنشآت الهندسية فى ذلك القرن ، وهاجم عاصمة داشيا مرة أخرى واستولى عليها عنوة ، وقتل دسبالس . وأقيمت حامية عسكرية قوية فى سرمزجتوسا ، وعاد تراجان إلى رومة ليحتفل بنصره بعشرة آلاف من المجالدين (أكبر الظن أنهم من أسرى الحرب) احتفالا دام ١٢٣ يوماً أقيمت فيها ألعاب عامة . وأصبحت داشيا بعد هذا الفتح ولاية رومانية ، وجاءها مستعمرون من الرومان ، تزوجوا من نسائها ، وأفسدت اللغة اللاتينية على طريقتها الخاصة . ووضعت مناجم الذهب فى ترنسلڤانيا تحت إشراف رقيب من قبل الإمبراطور ، استطاع أن يسترد منها فى وقت قصير ما أنفقه فى الحرب من أموال . وأراد تراجان أن يكافئ نفسه على جهوده فأخذ من داشيا مليون رطل من الفضة ونصف مليون

من الذهب — وكانت هذه آخر الغنائم القيمة التى استولت عليها الفيالق الرومانية لتعد بها للرومان مهاد الراحة والخمول .

وبفضل هذه الغنائم وزع الإمبراطور ٦٥٠ ديناراً (نحو ٢٦٠ ريالا أمريكياً) على كل مواطن تقدم بطلب هذه المنحة — وأكبر الظن أن عدد من طلبوها بلغ حوالى ٣٠٠ر٠٠٠ — وبقى منها ما يكفى لعلاج مشكلة التعطل الناشئة عن تسريح الجنود بالإقدام على منهاج من المنشآت العامة ، والمساعدات الحكومية ، وتزيين إيطاليا بالمبانى الفخمة ، لم تر له البلاد نظيراً من أيام أغسطس . وأصلح تراجان قنوات مياه الشرب القديمة وأنشأ قناة جديدة لا تزال تؤدى عملها إلى هذا اليوم ، وأقام فى أستيا مرفأ واسعاً تصله عدة قنوات بنهر التيبر وبمرفأ كلوديوس القديم ، وزينه بالمخازن التى كانت نماذج فى الجمال كما كانت نماذج فى النفع . وأصلح مهندسوه الطرق القديمة ، وشقوا طريقاً جديداً فى وسط المناقع البنتية ، ووضعوا مشروع طريق تريانا Traiana من بنفنتم إلى برندزيوم . وأعادوا فتح نفق كلوديوس الذى جففت به بحيرة فوستس ، وأنشأوا مرفأين عند سنتمسلا Centumcellae وأنكونا Ancona ، وطريقاً لجر مياه الشرب إلى راڤنا ، ومدرجا فى ڤرونا Verona. وأدى تراجان النفقات التى تطلبها إنشاء الطرق ، والجسور ، والمبانى الجديدة فى كافة أنحاء الإمبراطورية ، ولكنه كان يقاوم تنافس المدن فى إقامة المبانى ، ويحثها أن تنفق ما لديها من الأموال الزائدة على حاجتها فى إصلاح أحوال الفقراء وبيئتهم . وكان مستعداً على الدوام لمديد المعونة إلى أية مدينة نكبتها الزلازل ، أو النيران أو العواصف . وحاول أن يعمل على تقدم الزراعة فى إيطاليا بأن طلب إلى أعضاء مجلس الشيوخ أن يستثمروا ثلث رؤوس أموالهم فى الأراضى الإيطالية . ولما رأى أن هذا العمل سيزيد من عدد الضياع الكبيرة ، شجع صغار الملاك بأن قدم لهم أموالا من قبل الدولة بفوائد قليلة ، ليشتروا بها بيوتاً وأراضى زراعية ويصلحوها[٩] . وعمل على رفع نسبة المواليد

بزيادة مال الألمنتا Alimenta أى المال المخصص للإطعام . وتفصيل هذا أن الدولة كانت تقدم قروضا عقارية بسعر ٥ ٪ (وهو نصف السعر العادى وقتئذ) للزراع الإيطاليين ، وأجازت للجان الصدقات المحلية أن توزع ما يتجمع من فوائد هذه القروض على الفقراء من الآباء بمعدل ستة عشر سسترسا (٦ر١ ريال أمريكى) كل شهر لكل ولد ذكر ، وأثنى عشر سسترسا لكل بنت . وقد يبدو هذا المبلغ صغيراً ، ولكن الشواهد الباقية من ذلك العصر تدل على أن مبلغاً يتراوح بين ١٦ سسترسا وعشرين كان يكفى لرعاية طفل مدة شهر فى ضيعة من ضياع إيطاليا أثناء القرن الأول (١٠) . وقد بعثه هذا الأمل نفسه لأن يجيز لأطفال رومة أن يحصلوا على إعانات من القمح زيادة على ما يحصل عليه أباؤهم منه. وقد وسع هدريان والأنطونيون نطاق نظام الإطعام هذا حتى شمل عدة أجزاء من الإمبراطورية ، يكمله الإحسان القروى . ومن أمثلة هذا النوع الأخير ما أخرجه پلنى من ماله لهذا الغرض إذ تبرع من ماله للألمنتا بثلاثين ألف سسترس لتوزع على أطفال كومم Comum ، وأوصى كيليا مكرينا Caelia Macrina بمليون سسترس لمثل هذا الغرض لتنفق على أطفال تراسينا Terracina فى أسپانيا .

وكان تراجان ، مثل أغسطس ، يفضل إيطاليا على الولايات ، ويفضل رومة على إيطاليا نفسها . وقد انتفع إلى أقصى حد بعبقرية أپلودورس ومهارته فى العمارة . وكان أپلودورس هذا يونانيا من أهل دمشق خطط الطرق وقنوات مياه الشرب الجديدة وجسر نهر الدانوب . ثم كلفه الإمبراطور وقتئذ بأن يزيل طائفة كبيرة من البيوت ، ويقطع مائة وثلاثين قدما من قاعدة التل الكويرينالى Quirinal ، وينشئ فى الفضاء الناشىء من إزالتها والفضاء المجاور لها سوقا جديدة تعادل مساحتها مساحة الأسواق السابقة كلها مجتمعة ، ويحيط هذه السوق بمبانى فخمة جديرة بعاصمة العالم التى بلغت فى عهده أوج سلطانها وثرائها . وكان المدخل الموصل إلى هذه السوق الجديدة هو قوس نصر تراجان . وكانت مساحتها ٣٧٠

قدما ٣٥٤ ؛ وكانت مرصوفة بالحجارة الملساء ومحوطة بسور عال ، وأمامها صف من العمد ، وكان سوراها الشرقى والغربى تتخللهما كوات نصف دائرية غير نافذة مكونة من عمد دورية . وقامت فى وسطها باسلقا ألپيا التى سميت باسم عشيرة ثراجان والتى كان الغرض منها أن تكون مكاتب للأعمال التجارية والمالية ، وكانت مزينة من الخارج بخمسين عموداً ، نحت كل منها من حجر واحد ؛ وكانت أرضها من الرخام ، وتحيط بصحنها الرحب عمد من الحجر الأعبل ، وسقفها القائم على كتل ضخمة مغطى بالبرنز . وأنشئت بالقرب من الطرف الشمالى للسوق الجديدة مكتبتان إحداهما للمؤلفات اللاتينية ، والأخرى للمؤلفات اليونانية . وقام بينهما عمود تراچان وخلفهما هيكله . وكانت السوق بعد أن تمت من عجائب العمارة فى العالم كله .

وكان العمود الذى لا يزال قائماً إلى اليوم فى بداية أمره شاهداً على البراعة فى نقل الحجارة . وكانت حجارته منحوتة من ثمان عشرة كتلة مكعبة من الرخام زنة كل منها خمسين طنا ، وقد حملت هذه الكتل على ظهور السفن من جزيرة پاروس ، ثم نقلت على مواعين عندآستيا Aestia ، ثم جرت مصعدة فى النهر ضد التيار ، ثم حملت على اسطوانات إلى ضفة النهر وفى الشوارع إلى المكان الذى أقيم فيه العمود . وقطعت المكعبات بعد نقلها إلى اثنتين وثلاثين كتلة ، شيدت قاعدة العمود من ثمان منها ، وزينت ثلاثة من أوجه هذه القاعدة بتماثيل منحوتة ، أما الوجه الرابع فكان يوصل إلى سلم مكون من ١٨٥ درجة رخامية ، وأما جذع العمود ، وكان طول قطره من أسفل اثنتى عشرة قدما ، وارتفاعه سبعا وتسعين ، فيتكون من إحدى وعشرين كتلة حجرية ، وفى أعلاه تمثال لتراچان يمسك بيده كرة أرضية . وقد زينت الكتل قبل تثبيتها فى مواضعها بنقوش بارزة تمثل حروب تراچان فى داشيا . وكانت هذه النقوش أعلى ما وصلت إليه الواقعية الفلاقية وفن النحت القديم التاريخى . ولم تكن تهدف

إلى الجمال المـــادئ أو إلى أنماط فن النحت اليونانى التى كانت عند اليونان مثلا عليا يحتذيها المثالون ، بل كانت تهدف إلى أن تنقل للناظر إليها صورة واضحة للأفراد الأحياء وسط مناظر الحرب وضوضائها . فكانت والحالة هذه هى بلزاك Balzac وزولا Zola بعد كورنى Corneille وراسين. وفى وسعنا أن نتتبع فى الألفى صورة المنقوشة على المائة والأربع والعشرين لوحة لولبية فتوح داشيا خطوة خطوة ، فنرى الكتائب الرومانية خارجة من ثكناتها المسلحة أكمل تسليح ، ونشاهدها تعبر نهر الدانوب على جسر عائم ، ونبصرها تقيم معسكراً فى أرض العدو ، ثم نرى المعركة التى اختلطت فيها الحراب والسهام والمناجل والحجارة ، وفيها قرية داشية تشتعل فيها النار ، ونساؤها وأطفالها يطلبون إلى تراجان أن يرحمهم ، ونرى نساء داشيات يعذبن أسرى الرومان ، وجنوداً يعرضن على الإمبراطور رؤوس من قتلوهم من الأعداء ، وجراحين يضمدون الجروح ، ونرى الأمراء الداشيين يشربون كؤوس السم واحداً بعد واحد . وهاهو ذا رأس دسبالس يؤتى به إلى تراچان ضمن غنائم الحرب ، وها هو ذا صف طويل من الأسرى ، من رجال ونساء وأطفال ، قد انتزعوا من بيوتهم ليكونوا عبيداً للرومان فى أرض القرية — كل هذا وكثير غيره يحدثنا به العمود القائم اللون منقوشاً أحسن نقش وممثلا لأروع قصة فى تاريخ النحت فى العالم كله . ولم يكن الفنانون الذين قاموا بهذا العمل ، ولم يكن من استخدموهم للقيام به ، مدفوعين إليه بنعرة وطنية عارمة ؛ فهم قد مثلوا ما أظهره تراچان من ضروب الرحمة والرأفة ، ولكنهم كشفوا كذلك عن أعمال البطولة التى قامت بها أمة تجاهد فى سبيل حريتها ؛ وأجمل صورة فى النقش كله هى صورة ملك داشيا . وتلك بلا شك وثيقة عجيبة مزدحمة إلى حد يقلل من قوة تأثيرها . وبعض ما فيها من الصور فجة خشنة بدرجة يظن الإنسان معها أن محارباً داشياً هو الذى نحتها ، ونرى فن المنظور يستبدل به وضع الصور بعضها فوق بعض ؛ وقد رسم المنظر كله كان الإنسان يشاهده كما يشاهد نقش فدياس ،

من ركن بعيد مخبوء على الأرض . ولكنه رغم هذه العيوب خروج طريف على لطراز المقرر الذى لم يستطع لوداعته وهدوئه أن يعبر عما فى الخلق الرومانى من جد غامر ونشاط فياض . « وطريقة الاستمرار » التى جرى عليها — أى تدخل كل منظر فى الذى يليه وفناؤه فيه — لتخرج إلى حيز الوجود ما يوحى به قوس تيتس وتمهد السبيل إلى النقوش البارزة فى العصور الوسطى . وقد قلد المثالون هذه القصة ، رغم ما فيها من عيوب ، المرة بعد المرة من عمود أورليوس فى رومة وعمود أركديوس فى القسطنطينية إلى العامود النابليونى فى البلاس فنديه Place Vendée فى باريس .

واختتم تراجان منهاجه البنائى بأن أكمل بناء الحمامات التى بدأها دومتيان وحرص على أن يجعلها حمامات عظيمة فخمة . وكان فى هذه الأثناء قد مل السلم بعد أن دامت ست سنوات ؛ ذلك أن العمل الإدارى لم يكن يوقظ ما يكمن فيه من نشاط كما توقظه الحرب ، ولم يكن يحس وهو فى قصره أنه حى ، وقال فى نفسه لم لا أبدأ فى تنفيذ خطط قيصر من حيث أخفق أنطونيوس ، فأسوى المسألة البارثية تسوية نهائية ، وأجعل للدولة — الرومانية — حدوداً أكثر مناعة وصلاحية من جهة الشرق ، وأسيطر على الطرق التجارية التى تخترق أرمينية وبارثيا إلى أواسط آسية والخليج الفارسى وبلاد الهند ؟

وبعد أن أتم استعداده بدأ يزحف مرة أخرى على رأس فيالقه (١١٣) . فاستولى على أرمينية بعد عام واحد من بداية زحفه ؛ ولم يمض عام آخر حتى كان قد اخترق بلاد النهرين ؛ ووصل إلى المحيط الهندى — فكان أول من وقف أمام ذلك البحر من القواد الرومان وآخرهم . وكان الرومان فى ديارهم يتعلمون الجغرافية بتتبع انتصاراته ؛ وكان يسر مجلس الشيوخ أن يسمع فى كل أسبوع تقريباً أن أمة أخرى قد غلبت أو أنها تعجل بالاستسلام : البسپور Bosporus ، والكلشى ، وأيبيريا الأسيوية ؛ وألبانيا الأسيوية ، وأسرهوبنى Osrhoene ومسينيا ، وميديا ، وأشور ، وبلاد العرب الشمالية ، وبارثيا نفسها

فى آخر الأمر . وقد جعل پارثيا ، وأرمينية ، وأشور ، وبلاد النهرين ولايات ، وكان من مفاخر هذا الإسكندر الجديد أن اختار لكل بلد من هذه البلاد التى كانت قديماً من أعداء رومة ، ملكا خاضعاً لسلطانه وأجلسه على عرشه . ووقف تراچان على شواطئ البحر الأحمر وقال إنه يؤسفه أشد الأسف أن شيخوخته تحول بينه وبين مواصلة الزحف إلى نهر السند كما فعل القائد المقدونى العظيم ، واكتفى بأن أنشأ فى البحر الأحمر أسطولا يسيطر به على طريق الهند وعلى تجارتها ، ووضع حاميات فى جميع النقط ذات الأهمية الحربية وعاد وهو كاره إلى رومة .

لكن تراچان كان قد عدا طوره فذهب كما ذهب أنطونيوس إلى أبعد مما يجب وبأسرع مما يجب ، وأهمل تنظيم فتوحه وخطوط اتصاله . فلما وصل إلى أنطاكية علم أن أسروس Asroes ملك پارثيا الذى خلعه قد حشد جيشاً جديداً استعاد به ما بين النهرين ، وأن نار الفتنة اشتعلت فى جميع الولايات الجديدة ، وأن يهود الجزيرة ، ومصر ، وقورينى قد خرجوا عليه وأشعلوا نار الثورة فى البلاد ، وأن الاستياء قد عم بلاد لوبيا ، وموريتانيا ، وبريطانيا . وأراد المحارب الشيخ أن ينزل إلى ميدان القتال مرة أخرى ، ولكن قوته الجسمية لم تسعفه . ذلك أنه أنهك جسمه بأن عاش فى الشرق الحار بنشاط الغرب البارد ، فأصيب بداء الاستسقاء ، وعدت عليه ضربة شلل جعلت إرادته القوية لا حول لها ولا طول فى جسمه المهدم . ومن أجل ذلك عهد وهو مكتئب حزين إلى لوسيوس كويتس Lucius Quietus أن يقلم أظفار الفتنة الناشبة فى أرض الجزيرة ، وأرسل مارسيوس تربا Marcius Turba لإخضاع اليهود فى أفريقية ؛ وولى هدريان ابن أخيه قيادة الجيش

الرومانى الرئيسى فى سوريا . ثم أمر أن يحمل هو إلى ساحل قليقية Cilicia ، على أمل أن يبحر منها إلى رومة حيث كان مجلس الشيوخ يعد له أعظم احتفال بالنصر أقيم لقائد من القواد من عهد أغسطس . ولكن منيته وافته فى الطريق عند سلينس Selinus (١١٧) ، وهو فى الرابعة والستين من عمره ، بعد أن حكم تسعة عشر عاما . وحمل رماده إلى عاصمة ملكه ، حيث دفن تحت العمود العظيم الذى اختير ليكون له قبراً .

الفصل الثالث

هدريان

١ — الحاكم

لعلنا لن نعرف قط هل جلس هدريان أروع شخصية فى الأباطرة الرومان على عرش الإمبراطورية بأساليب العشق والغرام ، أو لوثوق تراجان بكفايته وعظيم قدرته . فأما ديوكاسيوس فيقول إن « سبب تعيينه أنه لما مات تراجان ولم يكن له وارث ، عملت أرملته پروتينا ، وكانت تحب هدريان ، على أن يخلفه على العرش[١٢] . ويعيد اسپارتيانس Spartianus هذه القصة ، ولكن پلوتينا وهدريان يكذبان هذه الشائعة ، غير أنها رغم تكذيبهما إياها ظلت تلوكها الألسن طوال حكمه ، وقد فصل هو فى الأمر بأن وزع هبات سخية على جنوده .

ويقول پبليوس إيليوس هدريانس إن اسمه واسم أسرته مشتقان من مدينة أدريا الواقعة على البحر الأدرياوى ، وتقول سيرته التى كتبها بنفسه إن أسلافه هاجروا من هذه المدينة إلى أسپانيا . وشهدت مدينة إتالكا Italica الأسپانية التى ولد فيها تراجان فى عام ٥٢ مولد ابن أخيه هدريان فى عام ٧٦ . ولما مات والد الغلام فى عام ٨٦ كفله عمه تراجان وكيليوس أنيانس Caelius Attianus . وتولى ثانيهما تعليمه وغرس فيه حباً شديداً للأدب اليونانى جعـــل الناس يلقبونه به من قبيل الفكاهة غريقيولس Graeculus . ودرس أيضا الغناء ، والموسيقى ، والطب ، والعلوم الرياضية ، والتصوير ، والنحت ، ثم مارس فيما بعد عدة فنون أخرى . واستدعاه تراجان إلى رومة (٩١) وزوجه بابنة أخيه (١٠٠) ڤيڤيا سبينا . وكانت هذه الفتاة ، كما تدل عليها صور تماثيلها النصفية ، إن لم تكن

هذه التماثيل قد صورتها كأنها مثل أعلى للفتيات ، نقول كانت هذه الفتاة ذات جمال بارع تحس به هى وتفخر به ، ولكن هدريان لم يجد فى هذا الجمال سعادة باقية.. ولعل سبب شقائه أنه كان مولعا بالكلاب والجياد فوق الحد الواجب ، وأنه كان يقضى فى الصيد مع هذه الكلاب والجياد وفى بناء القبور لها حين تموت أكثر مما يجب أن يقضيه من الوقت فى هذين العملين ، أو لعله كان زوجا غير أمين أو بدا أنه كذلك . ومهما يكن من شىء فإنها لم تلد له أبناء ، وعاشا طوال حياتهما متنافرين متباعدين وإن كانت قد رافقته فى كثير من أسفاره ، وكان يظهر لها كل أنواع الرقة والمجاملة ، ووهبها كل خير ما عدا الحب . ولما أن نطق سوتونيوس Seutonius أحد أمناء سره بما لا يليق عنها فصله من منصبه .

وكان أول قرار أصدره هدريان بعد ارتقائه عرش الإمبراطورية أن نقض سياسة عمه الإمبراطورية . وكان قد نصح تراچان بعدم المضى حملته فى پارثيا ، لأنها تكلفه الكثير من المال والرجال ، ولأنها تجىء فى أعقاب حروب داشيا ، وأنها فى أحسن الظروف تبشر بمكاسب يصعب الاحتفاظ بها ، ولم يغفر له قواد تراچان الحريصين على المجد هذه النصيحة قط . فلما أصبح صاحب الأمر سحب الفيالق الرومانية من أرمينية ، وأشور ، وبلاد النهرين ، وپارثيا ، وجعل أرمينية مملكة تابعة له بعد أن كانت ولاية خاضعة للدولة ، ورضى أن يكون نهر الفرات حد الإمبراطورية من جهة الشرق . وكان مسلكه بعد تراجان كمسلك أغسطس بعد قيصر ، فنظم بإدارته السلمية ما يستطيع تنظيمه من الدولة التى لم يكن لها فى سعتها مثيل من قبل ، والتى كسبتها الجيوش الباسلة المغامرة . وظن القواد الذين كانوا على رأس جيوش تراچان — بالما ، وسلسس ، وكويتس ، ونجرينس — أن هذه خطة مبعثها الجبن ، وأنها بعيدة كل البعد عن الحكمة والسداد ، وكانوا يشعرون أن وقف الهجوم ، معناه الاقتصار على الدفاع ، وأن الاقتصار على الدفاع هو بداية الموت . وبينما كان هدريان مع فيالقه على ضفاف الدانوب ؛

أعلن مجلس الشيوخ أن القواد الأربعة يدبرون مؤامرة لقلب الحكومة ، وأنهم أعدموا بأمر المجلس . وكان إعدامهم دون محاكمة صدمة شديدة لأهل رومة ؛ ومع أن هدريان عاد مسرعاً إليها وأعلن أنه لم تكن له يد فى الأمر كله فإن أحداً لم يصدقه ، حتى بعد أن أقسم أنه لن يقتل شيخاً إلا بأمر المجلس . ولقد وزع على الشعب هبة سخية من المال ، وأقام له كثيراً من الألعاب ليسليه بها ، وألغى من الضرائب المتأخرة ما قيمته ٩٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس وحرق سجلات الضرائب علناً ، وظل عشرين عاماً يحكم البلاد حكماً عادلا ، حكيما تحت راية السلم . ولكنه رغم هذا كله لم يكن فى قلوب الشعب كل ما يرجوه من حب .

ويصفه كاتب سيرته القديم بأنه كان طويل القامة ، رشيقاً ، متثنى الشعر ، « ذا لحية طويلة يخفى تحتها ما فى وجهه من عيوب طبيعية »(١٤) . واقتدى به أهل رومة فأطالوا من ذلك الوقت لحاهم ، وكان قوى البنية ، وقد حافظ على قوته بممارسة الكثير من ضروب الرياضة البدنية ، وأهمها كلها الصيد ؛ وكثيراً ما قتل السباع بيده(١٥) . وقد امتزجت فى خلقه عناصر بلغت من الكثرة حدا يتعذر معه وصفها . فيقول لنا كتاب سيرته إنه كان « صارماً وبشوشاً ، فكهاً ووقوراً ، شهوانياً وحذراً ، شديداً وكريماً ، قاسياً ورحيما ، بسيطاً بساطة خادعة ، جمع المتناقضات فى كل شىء »(١٦) . وكان ذا بصيرة نافذة سريعة ، وكان نزيهاً متشككا ؛ ولكنه كان يحترم التقاليد ، ويرى أنها النسيج الذى يربط الأجيال بعضها ببعض ، وكان يقرأ كتب إپكتتس الرواقى ويعجب به ، ولكنه كان يطلب اللذة ويتذوقها دون حياء . وكان رجلا غير متدين ، يعتقد بالخرافات ، ويسخر من النبوءات ، ويمارس السحر والتنجيم ، ويشجع الاستمساك بالدين القومى ، ولا ينقطع عن القيام بواجباته بوصفه الكاهن الأكبر للدين الرومانى . وكان مجاملا وعنيداً ، قاسياً فى بعض الأحيان ، ورحيما فى العادة . وربما كانت هذه المتناقضات أعمالا اقتضتها مختلف الظروف . وكان يعود المرضى ، ويساعد

المنكوبين وقد وسع نطاق أعمال الإحسان القائمة فى وقته حتى شملت اليتامى والأرامل ؛ وكان سخياً فى مناصرة الفنانين ، والكتاب ، والفلاسفة ؛ وكان يجيد الغناء والرقص ، والعزف على القيثارة ؛ وكان مصوراً قديراً ، ومَثَّالا وسطاً . وقد ألف عدة كتب — منها كتاب فى النحو وآخر فى سيرته . ومنها قصائد مؤدبة وأخرى بذيئة(١٧) ، باللغتين اللاتينية واليونانية ؛ وكان يفضل الأدب اليونانى على اللاتينى ويفضل لغة كاتو الشيخ البسيطة على لغة شيشرون الفصيحة السلسة الفياضة . وقد حذا كثير من كتاب ذلك الوقت حذوه ، فأخذوا يكتبون بأسلوب عتيق متكلف . وقد جمع الأساتذة الذين كانت تؤجرهم الدولة ، وأنشأ منهم جامعة علمية ، ورفع مرتباتهم ، وشاد لهم مجمعاً علمياً فخماً لينافس به متحف الإسكندرية . وكان يسره أن يجمع حوله العلماء ورجال الفكر ، ويلقى عليهم الأسئلة المحيرة ، ويضحك من متناقضاتهم ومجادلاتهم العلمية . وكان فافورينس Favroinus الغالى أعظم فلاسفة هذه الندوة حكمة ، وكان إذا ما سخر منه أصدقاؤه لأنه يوافق هدريان على آرائه ، أجابهم بأن كل رجل يشد أزره ثلاثون فيلقاً لابد أن يكون على حق(١٨) .

ولقد جمع إلى هذه المتع العقلية الجمة إحساساً سليما بالواجبات العملية . من ذلك أنه حذا حذو دومتيان ، فلم يول معاتيقه إلا المناصب الصغيرة ، واختار رجال الأعمال ذوى الكفايات المجربة ، ليتولوا الإدارات الحكومية ، وألف منهم ومن بعض الشيوخ وفقهاء القانون مجلساً concilium يجتمع فى أوقات منتظمة للنظر فى سياسة الدولة . وعين كذلك وكيلا للخزانة advocatus fisci ليكشف عما عساه أن يرتكب من فساد أو غش فى شئون الضرائب ، وكانت نتيجة هذا أن زادت إيرادات الدولة زيادة ملحوظة من غير زيادة فى الضرائب . وكان يراقب بنفسه كل إدارة من إدارات الحكومة ؛ وقد أدهش رؤساءها ، كما أدهش نابليون رؤساء إداراته ، لإلمامه الدقيق بتفاصيل أعمالها ، ويقول اسبارتيانس إنه « كان قوى الذاكرة ،

وإنه كان يكتب ، ويملى ، ويستمع ، ويتحدث إلى أصدقائه كل ذلك فى وقت واحد(١٩) — وإن كان تكرار هذه القصة يبعث على الريبة فى صدقها . وبفضل عنايته ، وبمعونة إداراته المدنية الواسعة النطاق ، نعمت الإمبراطورية بحكم لعلها لم تنعم بمثله قبله أو بعده . وكان الثمن الذى أداه لهذا النظام المحكم هو قيام بيروقراطية مطردة الاتساع وإسرافاً فى إصدار الأوامر والنظم يبلغ حد الجنون ، قرب الزعامة أكثر من ذى قبل إلى الملكية المطلقة . وقد حرص هدريان على كل مظاهر التعاون مع مجلس الشيوخ ، ولكن موظفيه كانوا يزدادون كل يوم اعتداء على اختصاصات تلك الهيئة التى كانت تبدو من قبل « جمعية من الملوك » . ولقد كان هو قريباً من المشكلة قرباً يحول بينه وبين التنبؤ بأن بيروقراطيته القديرة المطردة التكاثر قد تصبح على مدى الأيام عبئاً باهظاً ينوء به دافعو الضرائب ، بل كان بعكس هذا يعتقد أن كل شخص فى الإمبراطورية سيجد لنفسه فى داخل هذا النطاق من القانون والفرائض الذى أنشأته الحكومة طريقاً يظهر فيه مواهبه ، وأن فى وسع كل إنسان أن يرقى من طبقة إلى طبقة أعلى منها .

ولم يكن عقله الصافى المنطقى يطيق فوضى ما تجمع من القوانين الغامضة المتناقضة ، ولهذا كلف يوليانس بأن ينسق قرارات البريتورين السابقين ، ويصدر بها مرسوماً دائماً ، وشجع غير هذا من أعمال التقنين التى مهدت السبيل لجستنيان . وكان يجعل من نفسه محكمة عليا سواء كان فى رومة أو فى أثناء تجواله فى الولايات ، واشتهر بأنه قاض عالم نزيه . وكان رحيما على الدوام بقدر ما يجيزه القانون من رحمة ؛ وقد أصدر طائفة لا عديد لها من المراسيم ، ينصر معظمها الضعفاء على الأقوياء والعبيد على الأسياد ، والفلاح الصغير على صاحب الضيعة الكبيرة ، والمستأجر على مالك الأرض ، والمستهلك على بائعى الأشتاب الغاشين ، ويقاوم بها كثرة الوسطاء بين المنتجين والمستهلكين(٢٠) . وكان يرفض ما يوجه إلى الناس من تهمة الخيانة ، ولا يقبل الوصايا من الآباء ، أو ممن لا يعرفهم من الأشخاص ، وأمر بأن

يراعى التسامح فى تطبيق القانون على المسيحيين[٢١] . وقد ضرب بنفسه المثل بما اتبعه فى أراضى الدولة من وسائل إصلاح الأراضى البور ، فكان يشجع الملاك على تأجير الأراضى غير المستصلحة إلى الزراع ليغرسوا فيها الحدائق من غير أن يؤدوا عنها إيجاراً حتى تثمر الأشجار . ولم يكن هدريان مصلحا متطرفاً فى إصلاحاته ، بل كان إدارياً قديراً يسعى فى نطاق ما يكبل الطبيعة البشرية من قيود ، وما يعتورها من تفاوت فى الكفايات ، إلى أن يوفر للناس جميعاً أكبر خير مستطاع . ولقد أبقى على الأشكال القديمة ولكنه صب فيها بالتدريج محتويات جديدة كلما دعته الضرورة إلى هذا ، وحدث ذات مرة ، حين ضعفت رغبته فى الأعمال الإدارية ، أن رفض الاستماع إلى امرأة جاءت تعرض عليه شكواها . وكانت حجته أن « ليس لدى وقت » . فصاحت قائلة : « إذن فلا تكن إمبراطوراً » فما كان منه بعدئذ إلا أن استمع إلى شكواها.

٢ ـ الجوال

كان هدريان على نقيض من سبقوه ، يهتم بالإمبراطورية اهتمامه بالعاصمة . ومن أجل هذا سار سيرة أغسطس الحميدة ، فقرر أن يزور كل ولاية من ولاياتها ، ويفحص عن أحوالها ، ويتعرف حاجاتها ، ويبادر بتخفيف أعبائها بما فى يديه من موارد الإمبراطورية . وكان إلى هذا شغوفاً بمعرفة ما لدى الشعوب المختلفة فى الإمبراطورية من فنون ، وما تتبعه فى حياتها من أساليب ، وما تكتسى به من ثياب ، وما تدين به من عقائد ؛ وكان يتوق إلى رؤية الأماكن الشهيرة التى ذاع صيتها فى تاريخ اليونان ، وأن يضرب بسهم فى تلك الثقافة اليونانية التى كانت العامل الأكبر فى تهذيب عقله كما كانت هى زينته . ويصفه فرنتو Fronto بقوله : « إنه لم يكن يحب أن يحكم العالم فحسب ، بل كان يحب فوق ذلك أن يطوف به »[٢٣] فى عام ١٢٠ غادر رومة ، ولم يغادرها بأبهة الملك وزينته ،

بل كان يصحبه فيها الخبراء ، والمهندسون المعماريون ، والبناءون ، والمهندسون والفنانون . وذهب أولا إلى غالة « وأعان جميع من فيها من العشائر بما أفاض عليها من سخائه وجوده »(٢٤) ، ثم انتقل منها إلى ألمانيا ، وأدهش كل من فيها بما أظهره من الدقة والعناية فى تفتيش وسائل الدفاع عن الإمبراطورية ضد من عليها فى مستقبل الأيام ، وأعاد تنظيم الطرق الحصينة الممتدة بين الرين والدانوب ، وزاد من أطوالها ، وأصلحها .

ومع أنه كان رجل سلام فإنه كان متمكناً من فنون الحرب ، وكان يعتزم ألا يجعل ميوله السلمية تضعف من قوة جيوشه أو تغرى به أعداءه . وقد أصدر أوامر مشددة للمحافظة على النظام العسكرى ، وكان هو نفسه يخضع لما وضعه من القواعد أثناء زيارة المعسكرات ، فكان إذا حل بها عاش عيشة الجنود ، وأكل من طعامهم ، ولم يركب قط مركبة ، بل كان يسير على قدميه يحمـــل عتاده ويواصل السير عشرين ميلا بلا انقطاع ، ويظهر من الجلد ما لا يعتقد معه من يراه أنه عالم وفيلسوف . وكان فى الوقت نفسه يكافئ المتفوقين ، وقد رفع من شأن منزلة الفيالق من الناحيتين القانونية والاقتصادية ، وأمدها بالجيد من الأسلحة وبكفايتها من المؤن . وخفف عنها شدة النظام فى أوقات الفراغ ؛ وكل ما كان يصر عليه فى هذه الأوقات ، أن تكون وسائل التسلية مما لا يضعف من قدرتها على أداء واجباتها ، حتى لم يكن الجيش الرومانى فى وقت من الأوقات أحسن حالا مما كان عليه فى أيامه .

وانحدر بعدئذ فى نهر الرين نحو مصبه وأبحر من هناك إلى بريطانيا (١٢٢) . ولسنا نعلم عن نشاطه فى تلك البلاد أكثر من أنه أمر أن يقام سور من خليج سلواى Solway Firth إلى مصب نهر التين Tyne « ليفصل بين البرابرة والروومان » ؛ وعاد من هناك إلى غالة ومر على مهل بأڤنيون Avignon ، ونيمر Nimes ، وغيرها من بلاد تلك الولاية ، وألقى عصا التسيار ليقضى

الشتاء فى طرقونة Tarragona فى شمالى أسپانيا . وبينا هو سائر بمفرده فى حديقة مضيفه إذ هجم عليه عبد وسيفه مسلول فى يده وحاول أن يقتله . ولكن هدريان تغلب عليه وأسلمه فى هدوء إلى الخدم ، فوجدوه مختل العقل .

وفى ربيع عام ١٢٣ قاد بعض الفيالق ليحارب المغاربة الضاربين فى شمالى أفريقية الغربى ، والذين كانوا يغيرون على مدن مورتانيا الرومانية ، فهزمهم وردهم على أعقابهم إلى تلالهم ؛ ثم أبحر إلى إفسوس ، حيث قضى فصل الشتاء ، ثم زار مدن آسية الصغرى واستمع إلى مطالب أهلها وشكواهم ، وأنزل العقاب بمن أساءوا استخدام سلطتهم من الموظفين ، وكافأ القادرين منهم ، وأعد المال والرسوم ، والعمال لتشييد الهياكل والحمامات ودور التمثيل . وكانت سزكس Cyzicus ونيقية Nicaea ، ونيقوميديا Nicomedia قد نكبت بزلزال شديد ، فأصلح هدريان ما تخرب منها بنفقات من أموال الدولة ، وشاد فى سزكس هيكلا عد من فوره بين عجائب الدنيا السبع(٢٥) . ثم اتجه شرقا محاذيا ساحل بحر اليكسين إلى طرابزوس Trapezus ، وأمر حاكم كپدوكيا — المؤرخ أريان Arrian — أن يبحث أحوال جميع الثغور الواقعة على البحر الأسود ، وأن يعد له تقريراً عنها ؛ ثم اتجه نحو الجنوب الغربى واخترق پفلجونيا Paphlagonia ؛ وقضى الشتاء فى برجموم . وفى خريف عام ١٢٥ أبحر إلى رودس ومنها إلى أثينة حيث قضى شتاء طيباً سعيداً عاد بعده إلى وطنه . ولم تفارقه الرغبة فى الاستطلاع وهو فى الخمسين من عمره فانتقل من إيطاليا إلى صقلية . وتسلق جبل إتنا ، يشاهد شروق الشمس من فوق صخرة ناتئة تعلو فوق البحر ١١٠٠٠ قدم .

ومما هو جدير بالذكر أنه استطاع أن يغيب من عاصمة ملكه خمس سنين وهو واثق من أن مرؤوسيه سيصرفون شئون الدولة كما يجب . ذلك أنه قد عمل ما يجب أن يعمله الحاكم القدير ، فأنشأ ودرب أداة

حكومية صالحة تكاد تسير من تلقاء نفسها . وأقام رومة ، بعد عودته إليها أكثر قليلا من عام ، ولكن حب الأسفار كان يسرى فى دمه ولحمه ، وكان لا يزال فى العالم أجزاء كثيرة تتطلب البناء والإصلاح . فغادر إيطالية مرة أخرى فى عام ١٢٨ ، وقصد فى هذه الرحلة يتكا Utica ، وقرطاجنة ، والمدن الجديدة المزدهرة فى شمالى أفريقية . ثم عاد إلى رومة فى فصل الخريف ، ولكنه غادرها بعد قليل ؛ وقضى شتاء آخر فى أثينة (١٢٨ — ١٢٩) . واختير فيها أركونا ، ورأس وهو مبتهج سعيد حفلات الألعاب والأعياد ، وسره أن يلقب بالمحرر ، وبهليوس Helios وزيوس ، ومنقذ العالم . وفيها اختلط بالفلاسفة ، ورجال الفن ، وأظهر ما أظهره نيرون وأنطونيوس من ظرف ولطف دون أن ينزل إلى ما نزلوا إليه من حماقة وسخف . وساءه ما فى قوانين أثينة من فوضى فكلف جماعة من كبار المشترعين أن يجمعوا هذه القوانين وينسقوها ؛ وإذ كان هو على الدوام من المهتمين بشئون الدين المتشككين فيه ، فقد طلب أن يتعرف الطقوس الإلزيانية الخفية . ولما وجد التعطل يهدد أثينة ، وكان يعتزم فى الوقت نفسه أن يعيد المدينة إلى ما كانت عليه من الفخامة فى عصر پركليز ، استدعى رجال العمارة ، والمهندسين ، ومهرة الصناع ، وبدأ مشروعا ضخما من المبانى يفوق مبانيه العامة فى رومة . فقد شاد عماله فى مساحة مربعة من الأرض تحيط بها طائفة كبيرة من العمد مكتبة عامة جدرانها من الرخام بها ١٢٠ عمودا ، ولها سقف مذهب وحجرات رحبة تتلألأ فيها أحجار المرمر والصور والتماثيل . ثم بنوا ملعباً رياضياً ، وقناة لماء الشرب ، وهيكلا لهيرا ، وآخر لزيوس « إله اليونان أجمعين » . وكان أعظم هذه الأعمال كلها هو إتمام الأولمپيوم — أى الهيكل الفخم المقام لزيوس الأولمپى والذى بدأه بيستراتس قبل ذلك الوقت بستة قرون وعجز أنتيوخس إپفانيز عن إتمامه . ولما غادر هدريان أثينة غادرها وهى أنظف وأكثر رخاء وجمالا مما كانت عليه فى أى عهد من عهودها السابقة(٢٦)

وفى ربيع عام ١٢٩ أبحر إلى إفسوس . ثم رحل مرة أخرى إلى آسية الصغرى ، وكان ينشئ المدن ويشيد المبانى أينما حل . وسافر إلى كپدوكيا ، وفتش حاميتها . ولما جاء إلى أنطاكية وهبها المال اللازم لبناء قناة لماء الشرب ، وهيكل ، ودار للتمثيل ، وحمامات عامة . وزار فى خريف ذلك العام تدمر وبلاد العرب ، ثم رحل فى عام ١٣٠ إلى أورشليم . وكانت المدينة المقدسة لا تزال مخربة ، لا تكاد تفترق فى شىء عما تركها عليه تيتس قبل ذلك الوقت بستين عاما ، يسكنها عدد قليل من اليهود الفقراء المساكين يقيمون فى حظائر وأكواخ بين الصخور . وتأثر قلب هدريان وخياله بما شاهده من أثار الدمار والتخريب بمكانها المقفر . لقد كان يرجو بما شاده فى بلاد اليونان والشرق الهلنستى وما أعاده إليها من مظاهر الفخامة أن يقيم الحواجز بين الحضارة اليونانية ــ الرومانية وبين العالم الشرقى إلى أعلى مما كانت قبل ؛ أما الآن فقد أصبح يحلم بأن يحول صهيون نفسها إلى قلعة وثنية ، فأمر أن يعاد بناء أورشليم لتكون مستعمرة رومانية وأن تسمى إيليا كپتولينا ، تخليداً لذكرى قبيلة هدريان وكپتول چوپتر فى رومة . وارتكب بعمله هذا خطأ نفسانياً وسياسياً كان خليقاً ألا يرتكبه رجل من أوسع الساسة عقلا وأعظمهم حكمة فى التاريخ كله . ثم انتقل إلى الإسكندرية (١٣٠) ، وابتسم ابتسامة الرجل المتسامح الواسع الأفق حين أبصر أهلها المتخاصمين المتشاحنين . وزاد محتويات المتحف ، وأعاد بناء ضريح پمپى ، ثم عمل ما لم يعمله قيصر ، فأرخى لنفسه العنان وصعد فى النيل على مهل بصحبة زوجه سبينا ، وحبيبه أنتنوُوس Antinoüs . وكان قد التقى بالفتى اليونانى فى بيثينيا قبل ذلك الوقت ببضع سنين ، وأعجبه جمال الشاب ذى الوجه المستدير ، والعينين الرقيقتين ، والشعر الملتوى ، واتخذه خادماً خاصا له ، وشعر نحوه بعاطفة قوية وحب عظيم . ولم يصل إلينا ما يدل على أن سبينا احتجت على هذه الصلة ، ولكن ألسنة السوء

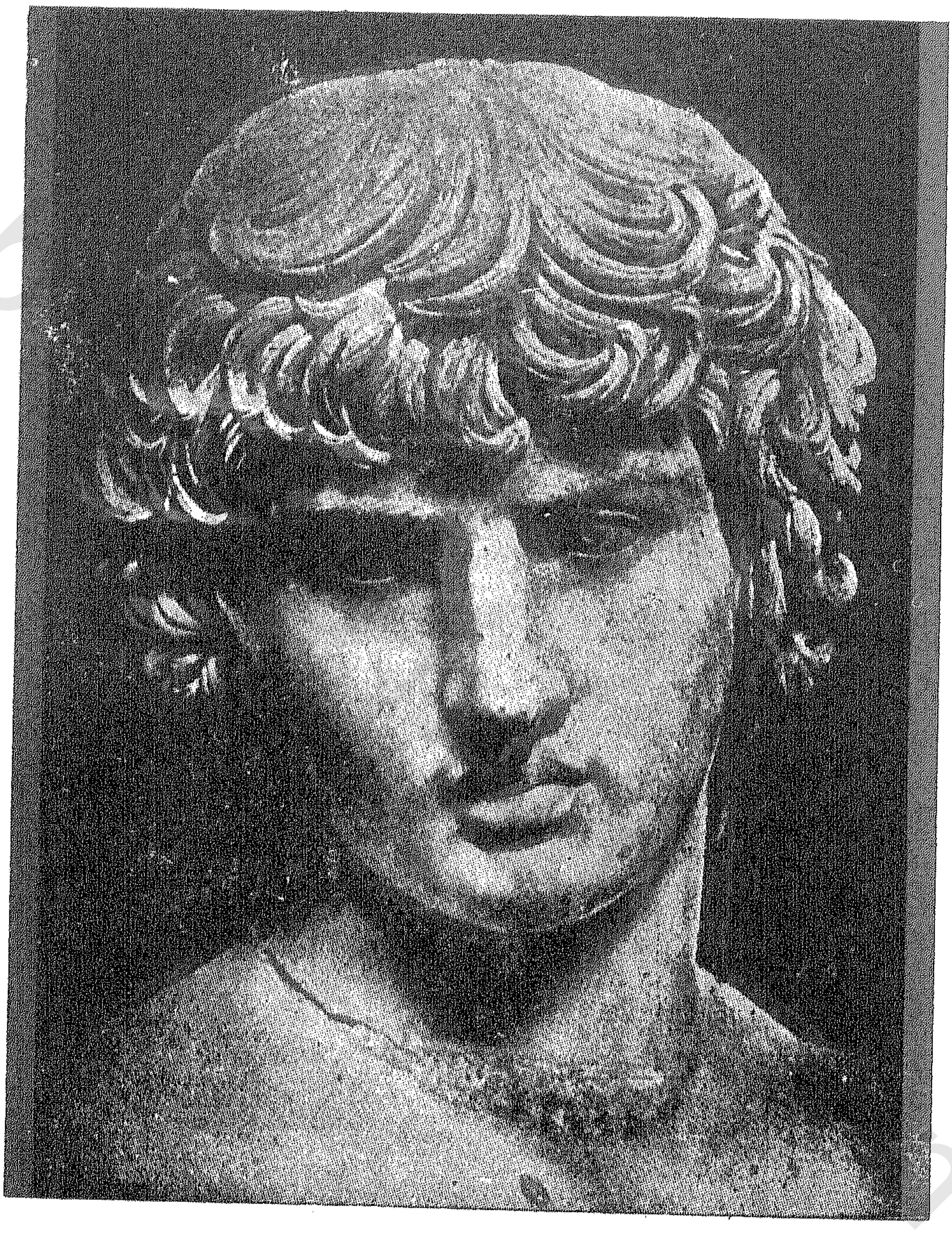

(شكل ١١) أنتينوس

obeikandl.com

فى المدينة كانت تقول إن الغلام كان جنميدى Gednyme(*) زيوس الجديد . وربما كانت الحقيقة أن الإمبراطور الذى لا ولد له قد أحب الغلام لأنه يرى أن الآلهة قد حبته به ليكون ولداً له . وفى هذه الرحلة وبينما كان هدريان فى أوج سعادته مات أنتنوُوس فى الثامنة عشرة من عمره — ويلوح أنه غرق فى نهر النيل وحزن ملك العالم « وبكى كما تبكى النساء » على حد قول اسپارتيانس ؛ وأمر بأن يقام له هيكل على شاطئ النهر ، ودفن فيه الغلام ، وأعلن للعالم أنه إله . ثم أنشأ حول ضريحه مدينة هى مدينة أنتينوپوليس التى قدر لها أن تكون فيما بعد عاصمة من عواصم الدولة البيزنطية . وبينما كان هدريان يعود محزوناً إلى رومة بدلت الأساطير القصة : فقالت إن الإمبراطور عرف عن طريق السحر أن أعظم خططه لن تفلح إلا إذا مات أحب الأشياء إليه . وسمع أنتنوُوس بهذه النبوءة فأمات نفسه طائعاً مختاراً . ولعل هذه الخرافة قد نشأت بالسرعة التى تكفى لأن تمر عيش هدريان وتهد ركنه فى سنى ضعفه وشيخوخته .

ولما عاد إلى رومة (١٣١) كان يحس بأنه قد جعل الدولة خيراً مما كانت حين جلس على عرشها . ولقد كان على حق فى هذا الإحساس ، فإن الدولة فى واقع الأمر لم تبلغ فى وقت من الأوقات ، ولا فى عهد أغسطس نفسه ، ما بلغته وقتئذ من الرخاء . ولم يصل عالم البحر الأبيض فى يوم من الأيام إلى مثل ما وصل إليه فى عهده من الاستمتاع بالحياة الكاملة ، ولم يعد مرة أخرى موطناً لحضارة بلغت ما بلغته حضارة تلك الأيام من رقى ، وسعة انتشار ، وعمق أثر فى جميع السكان . ولم يكن فى الحكام جميعهم حاكم أكثر من هدريان حبا لخيرها ، وعملا لرفاهيتها . لقد كان أغسطس يرى أن الولايات توابع لإيطاليا تفيد منها مالا وثراء ، وكان يحكمها حكما صالحا لتدر الخير على إيطاليا . أما الآن فقد نضجت آراء قيصر

(*) جنميدى هو الشاب الوسيم الذى كان ساقى زيوس بعد هيبى ، وقد حمله نسر زيوس إلى أولمپس وأصبح الاسم فيما بعد يطلق على كل غلام مخنث . (المترجم)

وكلوديوس وآتت أكلها كاملة لأول مرة ، فلم تكن رومة جابية الضرائب لإيطاليا ، بل كانت الحاكم المسئول عن دولة يستمتع كل جزء من أجزائها بقسط من عناية الحكومة مكافئ لما تستمتع به سائر الأجزاء ، وتحكم فيها الروح اليونانية بلاد الشرق ، ويحكم فيها العقل الروماني الواسع الأفق سعة الروح الرومانية الدولة والغرب ، لقد رأى هدريان قبل موته الدولة كلها بعينيه وجمع شتاتها ووحدها ، وكان قد وعد أنه « سيدبر شئون هذه المجموعة من الأمم تدبير من يدرك أنها ملك الشعب لا ملكه الخاص »(٣٧) ؛ وقد أنجز ما وعد .

٣ – البنّاء

ولم يكن باقياً إلا شيء واحد – إذا حصلت عليه رومة كانت أيضاً أجمل مما كانت قبل . لقد كان هدريان الفنان لا ينفك يناقش هدريان الحاكم ، فقد أعاد بناء البانثيون في الوقت الذي كان يعيد فيه تنسيق القانون الروماني . ولسنا نعرف رجلا غيره أكثر منه بناء ، ولا حاكما شاد من المباني مثل ما شاد هو . لقد كان في بعض الأحيان يضع بنفسه تصميم ما يشاد له من المباني ، وكان يفحص عنها بنفسه ويقومها بخبرته في أثناء تشييدها ، وقد أمر بإصلاح نحو مائة مبنى أو إعادة بنائها ، ولم ينقش اسمه على أي واحد منها . وقد جنت رومة الشيء الكثير من حكمته وقدرته مجتمعتين وهما قلما تجتمعان في إنسان . أما هو فقد اجتمعت فيه قوة الشباب وحكمة الشيوخ .

وأشهر ما أعاده من المباني حرم البانثيون – وهو أحسن بناء احتفظ بشكله من أبنية العالم القديم ، ولقد دمّرت النار الهيكل الرباعي الذي بناه أجرپا ، ويلوح أنه لم يبق منه إلا مدخله الكورنثي الأمامي المعمد . والآن أمر هدريان مهندسيه أن يقيموا شمالي هذا الهيكل القديم هيكلا دائريا ، وإلا يخرجوا في بنائه على الأنماط اليونانية الأصيلة . وكان ينزع بحكم ذوقه اليوناني إلى تفضيل الأشكال

اليونانية على الأشكال الرومانية فيما ينشئه من مبانى فى عاصمة ملكه . ولم يكن الهيكل الجديد هو ومدخله المعمد وحدة منسجمة متناسقة ، أما داخله — وهو دائرة قطرها ١٣٢ قدماً ، خالية من الدعائم التى تعترض السائر فيها — فكان بفراغه يوحى للسائر فيه بإحساس من الحرية لايجد له نظيراً إلا فى الكنائس القوطية . وكان سمك جدرانه عشرين قدما ، وكانت مشيدة من الآجر ومغطاة فى جزئها الأسفل الخارجى بالرخام ، وفى أجزائها الأخرى بالمصيص ؛ تبرز منها الفصوص من حين إلى حين . وكان سقف المدخل من صفائح البرنز ، وقد بلغ من سمكها أنها حين أزالها البابا إربان الثامن وجدها تكفى لصب مائة مدفع وعشرة مدافع ، وإقامة المظلة المرفوعة فوق المذبح العالى فى كنيسة القديس بطرس[٢٩] . وكانت أبوابه البرنزية الضخمة مغطاة فى بادئ الأمر بصفائح الذهب . وأنشئت فى الأجزاء السفلى من جدرانه الداخلية الخالية من النوافذ سبعة محاريب زينت بعمد عالية ترتكز عليها دعامات هى والعمد من الرخام ، وكانت هذه المحاريب فى أول الأمر كوات غير نافذة وضعت فيها تماثيل ، أما الآن فهى محاريب صغيرة فى كنيسة فخمة . وقد غطيت بعض الأجزاء العليا من الجدار بألواح من الحجارة الغالية تفصلها بعضها عن بعض عمد من الحجر السماقى . وكانت أعظم روائع الهندسة الرومانية هى القبة المصندقة التى ترتفع فى الداخل فوق أعلى الجدران . وكانت طريقة إنشائها أن صب الأسمنت المسلح فى أقسام مضلعة ، ثم تركت حتى تتماسك فيتكون منها كلها كتلة قوية صلبة ، كأنها حجر ضخم واحد ، وكانت بهذه الطريقة فى غنى عن الدعامات الجانبية ، ولكن المهندس الذى أقامها أراد أن يزداد ثقة بقوتها ، فأنشأ لها أكتافاً فى الجدران . وكانت مشكاة (يسمونها العين oculus) ، يبلغ قطرها ٢٠ ميلا ، هى الفتحة الوحيدة التى تمد الضريح بحاجته من الضوء . ويبلغ طول قطر هذه القبة الفخمة الضخمة ٢٦ قدما ، وهى أكبر قباب العالم كله قديمه وحديثه ، وقد أنشئت على غرارها سلسلة من القباب تختلف من الطراز البيزنطى إلى الطراز

الرومانى وإلى طراز قبة القديس بطرس إلى قبة الكبتول فى واشنجتن ، وما بين هذه من طرز تماثلها أو تختلف عنها تماثلا وإختلافاً متفاوتين فى القرب والبعد :

وأكبر الظن أن هدريان نفسه هو الذى وضع تصميم هيكل ڤينوس وروما Roma ذى القباءين الذى كان يقوم أمام الكلوسيوم ، لأن الخرافات تروى أنه أرسل تصميم الهيكل إلى أپلودورس ، وأنه أمر أن يعدم هذا الفنان الشيخ لأنه أرسل إليه يسخر من هذا التصميم(٣٠) . ولقد اشتهر هذا الهيكل بعدة صفات انفرد بها عن كثير من الهياكل : منها أنه كان أكبر هيكل فى رومة ، فقد كان له محرابان ، كل منهما لإحدى الآلهتين ، وكانتا تجلسان فيه على عرشين متصلين وظهر كل منهما فى ظهر الأخرى ؛ ومنها أن سقفه المقبى المصنوع من ألواح البرنز والمغطى بصفائح الذهب كان من أجمل مناظر المدينة وأكثرها لألاء . وبنى الإمبراطور لنفسه بيتاً أوسع من هذا الهيكل نفسه ، وهو القصر الريفى الذى لا تزال بقاياه تستهوى الزائرين إلى الضاحية الجميلة التى كانت تعرف فى أيام الإمبراطور باسم تيبور والتى تعرف لنا اليوم باسم تيڤولى Tivoli . فقد أقيم فى هذا المكان ، وسط ضيعة يبلغ محيطها سبعة أميال ، قصر احتوى كافة أنواع الحجرات والحدائق التى ازدحمت بالروائع الفنية الذائعة الصيت والتى بلغ من كثرتها أن اغتنى ببقاياها كل متحف من متاحف أوربا فى هذه الأيام . وقد أظهر واضع تصميم هذا القصر ما اعتاده المهندسون الرومان من عدم المبالاة بتناسب الأجزاء ، فقد كان يضيف إليه بناء إثر بناء كلما دعته إلى ذلك الحاجة أو استهواه الخيال ، ولم يحاول أن يجعل فيه من التناسق أكثر مما فى مبانى السوق الرومانية من فوضى معمارية . ولعل الرومان قد ملوا التناسب كما مله اليابانيون ، ولعلهم كانت تعجبهم مفاجآت الشذوذ وعدم الانتظام . وقد أضاف المهندس ذو الخيال الفياض إلى ما فيه من أروقة ذات عمد ومكتبات ، وهياكل ، وملهى ، وردهة رقص ، ومضمار سباق ، أضاف إلى هـــذا

كله نماذج مصغرة من مجمع أفلاطون العلمى ، ولوقيون أرسطو ، واستموا زينون ، كان الإمبراطور ، وهو منغمس فى هذا الثراء الباطل ، أن يظهر شيئاً من التقدير للفلسفة ويرد إليها بعض اعتبارها .

ولقد تم بناء هذا القصر فى السنين الأخيرة من حياة هدريان ، ولسنا نعلم أنه وجد فيه ما كان ينشده من سعادة ، فقد أقضت ثورة اليهود التى شبت فى عام (١٣٥) مضجعه وأمرت عيشه ، غير أنه أخمدها بوسائل رحيمة ، وساءه كثيراً أنه لم يستطع أن يختتم حياته من غير حرب ، وأصيب فى ذلك العام نفســـه ، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، بداء عضال — ربما كان هو ذات الرئة أوداء الاستسقاء — هد كيانه ، وبرحت به آلامه ، وأنهك شيئاً فشيئاً جسمه وروحه وعقله ، وزاد مزاجه حدة ، وأخلاقه شكاسة ، فأخذ يرتاب فى أصدقائه القدامى ، ويظنهم يأتمرون به ليقتلوه ويجلسوا على العرش بعده ، وأخيراً أمر أن يعدم جماعة منهم — ولسنا نعلم أكان على حق فى ريبته ، أم أنه أصدر أمره هذا فى ساعة ذهب فيها عقله .

وأراد أن يخمد حرب الوراثة التى كانت نارها مشتعلة وقتئذ فى بلاطه ، فتبنى صديقه لوسيوس ڤيرس Lucius Verus واختاره خليفة له . ولما مات لوسيوس بعد قليل من ذلك الوقت ، استدعى هدريان إليه وهو على سريره فى تيبور رجـــلا أبيض الصحيفة اشتهر بين الناس باستقامته وحكمته وهو تيتس أورليوس أنطونينس Titus Aurelius Antoninus وتبناه وجعله وارثاً لملكه من بعده . ثم شاء أن يكون أبعد من هذا نظرا فأشار على أنطونينس أن يتبنى هو الآخر شابين كانا يعيشان وقتئذ فى بلاطه ويربيهما تربية تجعلهما أهلا لهذا المنصب السامى ، وهما ماركس أنينس ڤيرس

Marcus Aninus Verus وكان وقتئذ فى السابعة عشرة من عمره ، ولوسيوس إيليوس ڤيرى Lucius Aelius Verus ، وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره . وكان أولها ابن شقيق أنطونينس وثانيهما ابن لوسيوس ڤيرس . ومنح هدريان أنطونينس فى ذلك الوقت لقب قيصر ولم يكن يلقب به قبل ذلك الوقت إلا الأباطرة وأبناؤهم ومن تناسل من أبنائهم الذكور ؛ أما بعده فقـــد كان الأباطرة يمنحون هذا اللقب كل من وارث للعرش مفترض ، ويحتفظون لأنفسهم بلقب أغسطس .

واشتد المرض وقتئذ على هدريان وبرح به الألم ، وكثيراً ما كان الدم ينزف من منخاريه . وضاق ذرعا بالحياة ، وأخذ يتمنى الموت . وكان قد أعد لنفسه قبراً على الضفة الأخرى من نهر التيبر — وهو ذلك الضريح الضخم الذى أضحت بقاياه الآن قلعة القديس أنجيلو Castel Sant' Angelo والذى لا يزال الناس يصلون إليه فوق جسر إيليوس الذى أقامه هدريان . وكان قد تأثر بالمثل الذى ضربه الفيلسوف الرواقى يفراتيز Euphrates ، وكان وقتئذ فى رومة . ذلك أن هذا الفيلسوف لما وجد أن المرض قد هد جسمه والشيخوخة قد أنهكته طلب إلى هدريان أن يأذن له بأن يقتل نفسه ، فلما أذن له تجرع عصير الشوكران(٣١) . ورجا الإمبراطور أن يقدم له سما أو سيفا ، ولكن أحداً ممن كانوا حوله لم يجب رجاءه ، فأمر عبداً من بلاد الدانوب أن يطعنه طعنة قاتلة ، ولكن العبد فر منه ؛ ثم أمر طبيبه أن يسمه ، فلم يكن من الطبيب إلا أن انتحر(٣١) . ثم عثر بعدئذ على خنجر وهم بقتل نفسه ، ولكن الخنجر انتزع منه . وحزن أشد الحزن لأنه ، وهو الذى يستطيع أن يقتل أى إنسان ، لا يسمح له هو نفسه أن يموت . فلما ضاقت به الحيـــل صرف أطباءه وأوى إلى بايا Baiae وتعمد أن يأكل ويشرب الأطعمة والأشربة التى تعجل منيته ؛ وأخيراً خارت قواه وجن من شدة

الألم ومات (١٣٨) ، بعد أن عاش ستين عاماً وحكم واحداً وعشرين . وقد خلف وراءه قصيدة صغيرة تعبر كما تعبر قصيدة دانتى عما ينتاب الإنسان من الأسى حين يذكر فى أيام حزنه ما مر به من أيام السعادة :

أيا نفسى ، أيا نفسى الجميلة ، أيا نفسى الحفاقة ، أيا شريكة جسمى الطينى وضيفه ، إلى أين أنت مسرعة — أيتها النفس الشاحبة ، أيتها النفس الجاسية ، أيتهـــا النفس العارية — إلى حيث لا تعودين ، إلى حيث لا تعودين ؟(٣٣) .

الفصل الرابع

أنطونينس بيوس

يكاد أنطونينس ألاّ يكون له تاريخ ، وذلك لأنه لا يكاد يقع فى أخطاء أو يرتكب قط جرائم . وكان آباؤه الأولون قد جاءوا من نيمز قبل ذلك العهد بجيلين ، وكانت أسرته من أغنى الأسر فى رومة ، ولما اعتلى عرش الإمبراطورية فى الحادية والخمسين من عمره وهبها حكومة هى أعدل حكومة شهدتها طوال تاريخها ، ولم تكن أقل هذه الحكومات كفاية .

وكان أسعد من لبس التاج حظا . ويقول مؤرخوه إنه كان طويل القامة ، وسيما ، جيد الصحة ، وقوراً ، دمث الأخلاق ، حازماً ، متواضعاً ، صادق البأس ، فصيح اللسان ، يحتقر بلاغة الألفاظ ، محبباً إلى الشعب ، يكره الملق . وإذا صدقنا ما يقوله فيه متبناه ماركس ، كان علينا أن نرفض ما وصف به من أنه « كان الجبار المعصوم من الخطأ الذى لم يعرفه العالم قط » . ولقد لقبه مجلس الشيوخ « بالتقى pius » لأنه رأى فيه مثالا للفضائل الرومانية الهادئة ، كما وصفه بأنه أفضل الزعماء . ولم يكن له أعداء مطلقاً ، وكان له مئات من الأصدقاء ؛ غير أنه لم يكن بمنأى من الأحزان ، فقد ماتت كبرى ابنتيه وهو يستعد للسفر إلى آسية ليكون والياً عليها ، وكانت صغراهما زوجة مربية لأورليوس ، واتهم الناس زوجته بأن خيانتها لزوجها كانت تعدل جمالها . وتحمّل أنطونينس هذه الشائعات وهو صامت صابر ، ولما ماتت زوجته فوستينا Faustina أرصد باسمها وتكريماً لها أموالا طائلة لمساعدة الفتيات وتعليمهن ، وخلد ذكراها بإنشاء هيكل فى السوق العامة كان من أجمل هياكل رومة . وزاد على ذلك أنه لم يتزوج غيرها حتى لا يشقى أبناؤه أو ينقص ميراثهم بهذا الزواج واكتفى بأن اتخذ له حظية .

ولم يكن رجلا ذكياً ، بالمعنى الضيق لهذا اللفظ . فلم يكن له حظ من العلم ، وكان ينظر إلى رجال الأدب والفلسفة والفن نظرة الرجل الأرستقراطى الذى يتركهم وشأنهم ولا يتدخل فى أعمالهم ، لكنه مع ذلك كان يساعدهم بالمال الكثير ، وكثيراً ما كان يدعوهم إلى قصره . وكان يفضل الدين على الفلسفة ، ويعبد الآلهة القدامى بإخلاص ظاهر ، وضرب لمن تبناهم مثلا فى التقى والصلاح . كان له أعظم الأثر فى ماركس فلم ينس قط قوله : « افعل كل شىء كما يجب أن يفعله تلميذ أنطونينس » . وقد أمر نفسه بأن « يذكر استمساكه بكل عمل معقول ، واعتداله فى كل شىء ، وتقواه وصفاء ملامحه ، واحتقاره للشهرة التى لا قيمة لها . . . واكتفاءه بالقليل ؛ وجلده وصبره ، واستمساكه بالدين مع بُعده عن الخرافات »(٣٤). وكان مع هذا متسامحاً مع أصحاب الأديان غير الرومانية ، فخفف من الإجراءات التى اتخذها هدريان ضد اليهود ، وجرى على سنة أسلافه من التساهل مع المسيحيين . ولم يكن بالرجل المتزمت الذى يضيق صدراً بالمرح ، بل كان يحب النكتة ، وكثيراً ما كانت تصدر منه الفكاهة اللطيفة . وكان يلعب ، ويصيد السمك والوحوش مع أصدقائه ، ولم يكن فى وسع الإنسان أن يستدل من سلوكه على أنه إمبراطور . وكان يفضل هدوء بيته الريفى فى لنوفيوم Lanuvium على ترف قصره الرسمى ، وكان يقضى كل لياليه تقريباً مع أسرته . ولما أن ورث العرش امتنع عن التفكير فيما كان يتوق إليه من راحة وهدوء يجعلهما سلواه فى شيخوخته . ولما تبين أن زوجته تتوقع أن تزداد بعد ارتقائه العرش أبهة وعظمة أنبها على ذلك بقوله : « ألا تعلمين أننا قد فقدنا الآن ما كان لنا من قبل ؟ »(٣٥) . فقد كان يعرف أنه ورث هموم العالم ومشاغله .

وكان أول ما عمله بعد اعتلائه العرش أن وهب ثروته الشخصية الكبيرة إلى خزانة الدولة . ثم ألغى المتأخر من الضرائب ، ونفح المواطنين بهبات من المال ، وأقام على نفقته كثيراً من الألعاب والحفلات ، وسد ما كان يعانيه الأهلون من

نقص فى الخمر ، والزيت ، والقمح ، بشراء هذه الأصناف وتوزيعها على الناس من غير ثمن . وواصل تنفيذ منهاج هدريان فى البناء فى إيطاليا ، وفى الولايات . ولكنه سار فيه باعتدال ؛ ومع هذا كله فقد دبر مالية الدولة بكفاية كانت نتيجتها أن وجد فى خزانتها كلها بعد وفاته ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ سسترس ، وكان ينشر على الناس إحصاء بجميع الإيرادات والنفقات ، ويعامل مجلس الشيوخ على أنه هو عضو من أعضائه لا أكثر ، ولم يقدم قط على عمل خطير إلا بعد استشارة زعمائه . وكان يعنى بدقائق الشئون الإدارية عنايته بالمشاكل السياسية ؛ « فكان يهتم بجميع الناس وبجميع الأشياء كأنهم أهله وكأنها ملكه الخاص »(٣٦) . وواصل سياسة هدريان فى صبغ القانون بصبغة الحرية ، وجعل عقوبة الزنى متساوية على الرجال والنساء ، وحرم السادة القاسيين من عبيدهم ، وقيد تعذيب العبيد فى المحاكمات بقيود شديدة ، وفرض أشد العقوبات على كل سيد يقتل عبداً له . وشجع التعليم برصد المال له من قبل الدولة ، وعلم أبناء الفقراء على نفقتها ، ومنح المعلمين والفلاسفة المعترف بهم كثيراً من امتيازات طبقة أعضاء مجلس الشيوخ .

وحكم الولايات أحسن حكم مستطاع دون أن يطوف بها ، فلم يغب قط عن رومة أو ما جاورها يوماً واحداً فى أثناء حكمه الطويل ؛ وكان يكتفى بأن يعين لحكم الولايات رجالا من ذوى الكفاية المخبورة والشرف الموثوق به . وكان يحرص على سلامة الإمبراطورية دون الاشتباك فى حروب ؛ « ولم يكن ينقطع قط عن ترديد قول سپيو إنه يفضل الاحتفاظ بحياة مواطن واحـــد على قتل ألف عدو »(٣٧) . على أنه قد اضطر أن يخوض غمار بعض الحروب الصغرى ليخمد ما نشب من الثورات فى داشيا ، وآخبة ، ومصر ؛ ولكنه عهد بهذه الواجبات إلى مرءوسيه ، ولم يسع إلى توسيع رقعة الدولة بل اكتفى بالحدود التى رسمها لها هدريان وراعى فى رسمها جانب الحذر ؛ وحسبت بعض القبائل الألمانية لينة هذا

ضعفاً ، ولعل هذا اللين قد شجعها على أن تتأهب لتلك الغزوات التى اهتزت لها دعائم الإمبراطورية بعد وفاته ؛ وكان هذا هو الخطأ الوحيد الذى ارتكبه فى سياسته . أما فيما عدا ذلك فقد كانت الولايات سعيدة فى أيامه ، ورضيت بحكم الإمبراطورية ورأت فيه البديل الوحيد من الفوضى والشقاق : وأمطرته الولايات سيلا من الملتمسات والمطالب ، أجابها إليها جميعاً إلا القليل الذى لايستحق الذكر ؛ وكان فى وسعها أن تعتمد عليه ليعوضها عن كل ما يصيبها من الخسائر بسبب الكوارث العامة : وتغنى المؤرخون من أهل هذه الولايات أمثال أسترابون ، وفيلو ، وأفلوطرخس ، وأپيان ، وإپكتتس ، وإيليوس أرستيديز بمديح السلم الرومانية ؛ ويؤكد أپيان أنه شاهد فى رومة مندوبى الدول الأجنبية يرجون عبثاً أن توضع بلادهم تحت الحكم الرومانى لكى تستمتع بمزاياه[٣٨] : ولم يعرف قط قبل ذلك الوقت أن حكومة ملكية مطلقة تركت الناس أحراراً كما تركتهم حكومة پيوس ، أو احترمت حقوق رعاياها كما احترمتها هذه الحكومة[٣٩] : ولاح أن العالم قد أدرك المثل الأعلى فى نظم الحكم . فقد كان هذا الحكم وقتئذ للعقل والحكمة ، وكأن العالم يحكمه أب شفيق رحيم :

ولم يكن باقياً على أنطونينس بعد هذا كله إلا أن يختم حياته الصالحة بموت هادئ : ولقد أصيب فى السنة الرابعة والسبعين من عمره بنزلة معدية ، وانتابته حمى شديدة ، فدعا ماركس أورليوس إلى فراشه ، وعهد إليه العناية بشئون الدولة ، وأمر خدمه أن ينقلوا إلى حجرة ماركس تمثال فرتونا fortuna (الحظ) الذهبى ، وكان الزعيم قد احتفظ بهذا التمثال فى حجرته عدداً كبيراً من السنين . وأسر إلى ضابط ذلك اليوم كلمة السر « الهدوء » . ثم أدار وجهه لساعته كما لو كان يريد النوم ، وأسلم الروح (١٦١) . وأخذت جميع الطبقات وجميع المدن تتبارى فى تكريم ذكراه .

الفصل الخامس

الفيلسوف إمبراطور

يقول رينان Renan : « لو أن أنطونينس لم يعين ماركس أورليوس خليفة له من بعده لما استطاع أحد قط أن ينافسه فيما اشتهر به من أنه خير الملوك على الإطلاق »(٤١) . ويقول جبن Gibbon : « لو أن إنساناً طلب إليه أن يحدد فى تاريخ العالم وقتاً كان فيه الجنس البشرى أعظم ما يكون سعادة ورخاء ، لما تردد فى أن يقول إنه هو الفترة التى تمتد من جلوس نيرفا إلى موت أورليوس . ولعل حكمهم مجتمعاً هو الفترة الوحيدة فى تاريخ العالم التى كانت فيها سعادة شعب عظيم هدف الحكومة الوحيد »(٤٢) .

ولد ماركس أورليوس ڤيرس فى رومة عام ١٢١ ، وكانت أسرة أنياى Annii قد وفدت قبل ذلك الوقت بمائة عام من سكوبا Succuba القريبة من قرطبة إلى رومة ، ويلوح أن ما اشتهروا به فى هذا البلد من شرف قد أكسبهم لقب ڤيرس أى « الحق » . ومات والد الغلام بعد ثلاثة أشهر من مولده فكفله جده الثرى ، وكان قنصلا فى ذلك الوقت ، وأخذه إلى بيته . وكثيراً ما كان هدريان يتردد على هذا البيت زائراً ، فأعجب بالغلام ، ورآه من طراز الملوك . ولم يعرف قط أن غلاماً مثله كان شبابه ينم عما ينتظره من مستقبل عظيم ، أو كان يدرك ما هيأته له الأقدار من حظ حسن . وقد كتب بعد ذلك الوقت بخمسين عاماً يقول : « إنى مدين للآلهة بما وهبتنى من جدود طيبين ، وآباء طيبين ، وأخت طيبة ، ومدرسين طيبين ، وأقارب وأصدقاء طيبين ، وكل شىء تقريباً طيب »(٤٣) . وأراد الدهر أن يفرض عليه شيئاً من التوازن فجعل له زوجة مريبة وابناً سافلا . وقد أحصى فى **تأملاته** ما يتصف به

أولئك الناس من فضائل وما تلقاه عنهم من دروس فى التواضع ، والصبر ، والرجولة ، والتعفف ، والتقوى ، وحب الخير ، و « بساطة الحياة البعيدة كل البعد عن عادات ذوى الثراء »(٤٤) ، وإن كان الثراء يحيط به من كل جانب .

ولم يلق غلام قط ما لقيه هذا الغلام من حرص ومثابرة على تربيته وتعليمه . فقد التحق فى شبابه بخدمة الهياكل والكهنة ، وحفظ عن ظهر قلب كل كلمة من كلمات الطقوس الدينية القديمة الغامضة المتعذرة الفهم ، ولم تنقص الفلسفة فى مستقبل الأيام من مثابرته على أداء تلك الطقوس القديمة المفروضة على الأتقياء الصالحين ، وإن كانت هذه الفلسفة قد زعزعت عقيدته الدينية . وكان ماركس يحب المباريات والألعاب الرياضية ومنها صيد الطير والحيوان ، وقد بذلت بعض الجهود لتقوية جسمه كما كانت الجهود تبذل لتنمية عقله وتقويم خلقه ، ولكن سبعة عشر مدرساً خاصاً يحيطون بطفل عبء ثقيل وعقبة كؤود فى سبيله . فقد كان أربعة نحاة ، وأربعة من علماء البلاغة ، وواحد من علماء القانون ، وثمانية من الفلاسفة يقتسمون زومة فيما بينهم . وكان أشهر هؤلاء الأساتذة كلهم م . كورنليوس فرنتو M. Cornelius Fronto معلم البيان . وكان ماركس يحبه ويحبوه بكل ما يحبو به التلاميذ أبناء الملوك أساتذتهم من عطف ولطف . ويتبادل معه رسائل تفيض رقة ووفاء ، ولكن الغلام رغم هذا أدار ظهره إلى فن الخطابة ورآه فناً باطلا غير شريف وانهمك فى دراسة الفلسفة .

وهو يشكر لأساتذته أنهم لم يلزموه بدراسة المنطق والتنجيم ، ويشكر لديجنيس Diognetus الرواقى أنه حرر عقله من الخرافات ، وليونيوس رستكس Junius Rusticus أنه عرفه بإپكتتس ، ولسكتس القيرونيائى Sextus of Chaeronea أنه علمه أن يعيش عيشة تتفق والطبيعة . وهو يحمد لأخيه سڤيرس Severus أنه علمه أخبار بروتس ، وكاتو اليتكائى ، وثراسيا Thrasea وهلڤديوس Helvdiius ويقول : « إنى تلقيت عنه فكرة الدولة

التى يكون فيها قانون واحد لجميع الناس ، والتى يتمتع أهلها جميعاً بحقوق متكافئة ، وبحرية الكلام ؛ وأخذت عنه فكرة الحكومة الملكية التى تحترم حرية المحكومين أكثر من احترامها كل شىء سواها »(٤٥) وفى هذا القول يستحوذ المثل الأعلى الرواقى للحكومة الملكية على العرش . ويشكر أورليوس لمكسمس Maximus أن علمه « أن يحكم نفسه ، وألا يسمح لشىء ما أن يضله ، وأن يكون بشوشاً فى كل الظروف ، وأن يجمع قدراً متكافئاً من اللطف والكرامة ، وأن يؤدى ما عليه من الواجبات من غير تذمر »(٤٦) وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن من الأمور الجلية أن كبار الفلاسفة فى ذلك الوقت كانوا كهنة بلا دين ، ولم يكونوا ميتافيزيقيين بلا حياة . غير أن ماركس آمن بأقوالهم إيماناً جدياً كاد وقتاً ما أن يفقد بسببه صحته التى كانت ضعيفة بطبيعتها لانهماكه فى حياة الزهد والتقشف . فقد ارتدى وهو فى الثانية عشرة من عمره رداء الفلسفة ، وأخذ ينام على قليل من القش المنثور على الأرض ، وظل زمناً طويلا لا يأبه برجاء أمه له أن ينام على فراش . ذلك أنه كان رواقياً قبل أن يصير رجلا ، ويحمد ربه : « لأنى احتفظت بزهرة شبابى ، وأنى لم أطمع فى أن أكون رجلا قبل الأوان ، بل أجلت هذا أكثر مما كنت أحتاج إلى تأجيله . . . وأنى لم تكن لى صلات جنسية قط . . . وأنى حين انتابتنى فيما بعد نوبات من الحب ، لم ألبث أن شفيت منها بعد زمن قليل »(٤٧) .

وقد حوله عن احتراف الفلسفة والكهنوت عاملان كان لهما أثر بالغ فى حياته . أولهما ما تولاه من المناصب السياسة الصغرى منصباً فى إثر منصب ، وذلك لأن واقعية الرجل الإدارى تعارضت لديه مع مثالية الشاب الغارق فى التأملات . وكان العامل الثانى صلته الوثيقة بأنطونينس پيوس . ولم تكن حياة أنطونينس الطويلة سبباً فى مضايقته بل ظل يحيا حياته الرواقية البسيطة ، ويواصل دراساته الفلسفية ، وواجباته الرسمية ، وهو يعيش

فى القصر ، ويمارس مرانه الطويل . وكان للمثل الذى ضربه له متبنيه فى الإخلاص والنزاهة فى الحكم أقوى الأثر فى نضوج عقله وخلقه . وكان الاسم الذى نعرفه به وهو أورليوس هو اسم القبيلة التى ينتمى إليها أنطونينس، وقد تسمى به ماركس ولوسيوس كلاهما بعد أن تبناهما . فأما لوسيوس فقد أصبح رجلا مرحاً محباً لملذات العالم ، خبيراً بملذات الحياة ومباهجها ؛ ولما أن رغب پيوس عام ١٤٦ أن يكون له زميل يشترك معه فى أعباء الحكم ، اختار لذلك ماركس وحده ، وترك للوسيوس دولة الحب . ولما أن مات أنطونينس جلس ماركس على العرش بمفرده ، ولكنه تذكر رغبة هدريان فاتخذ لوسيوس ڤيرس زميلا له وزوجه بابنته لوسلا Lucilla : فارتكب الفيلسوف بسبب حنوه ورأفته من الخطأ فى بداية حكمه ما ارتكبه فى نهايته ؛ ذلك أن تقسيم الحكم على هذا النحو كان سابقة سيئة ، فرقت شمل الدولة وأضعفتها فيما بعد أيام خلفاء دقلديانوس وقسطنطين .

وطلب ماركس من مجلس الشيوخ أن يخلع على پيوس مراسم التكريم القدسية ، وأتم الهيكل الذى شرع پيوس فى أن يقيمه تخليداً لذكرى زوجته ، وأظهر فيه أحسن الذوق وأكمله ، ووهبه لذكرى أنطونينس وفوستينا معا(*) . وحبا مجلس الشيوخ بكل أنواع المجاملة ، وسره أن يجد الكثيرين من أصدقائه الفلاسفة قد شقوا طريقهم إلى عضويته ، وحيته إيطاليا بأجمعها والولايات على بكرة أبيها ، ورأت فيه تحقيقاً لحلم أفلاطون : لقد أصبح الفيلسوف ملكا . ولكنه لم يفكر قط فى أن يجعل من الإمبراطورية « مدينة فاضلة » . فقد كان مثل أنطونينس محافظاً مستمسكا بالقديم ؛ ذلك أن المتطرفين لا ينشئون فى القصور ، وكان ملكا — فيلسوفاً بالمعنى

---

(١) ولاتزال عشرة من أعمدته الكورنثية المنحوت كل منها من حجر واحد من بين أجمل آثار السوق العامة الباقية إلى الآن . ومدخله باق بكامل أجزائه ، أما المحراب فهو ، وإن جرد من واجهته الرخامية ، باق إلى اليوم فى كنيسة سان لورنزو فى بلدة ميرندا .

الرواقى لا الأفلاطونى لهذا اللفظ . وقال يحذر نفسه : « لا تؤمل قط أن تقيم جمهورية أفلاطون . وحسبك أنك أصلحت أحوال البشر إلى حد ما ، ولا تظن أن هذا الإصلاح أمر قليل الخطر . ومنذا الذى يستطيع تغيير آراء الناس ؟ وإذا لم تستطع تغيير عواطفهم ، فإنك لا تستطيع أن تجعل منهم إلا عبيداً متمردين ومنافقين متلونين » . وكان قد تبين أن الناس لا يرغبون كلهم أن يكونوا قديسين أطهاراً ، ووطن النفس على أن يعيش فى عالم ملىء بالخبث والفساد ، ومن أقواله فى هذا : « إن الآلهة المخلدين يرضون أن يصبروا آجالا طوالا على هذه الكثرة من الأشرار وعلى ما ترتكبه من آثام كثيرة ، دون أن يغضبوا ، بل إنهم يحيطون هؤلاء الأشرار بالنعم الموفورة ، فهل يليق بك على قصر أجلك أن يسرع إليك الملل ؟ »(٤٨) : وقد وطد العزم على أن يعتمد على القدوة الحسنة لا على سطوة القانون ، فجعل نفسه بالفعل خادماً للدولة ، وأخذ على عاتقه جميع أعباء الإدارة والقضاء ، بما فى ذلك القسم الذى وافق لوسيوس على أن يتحمله ولكنه أهمله ؛ ولم يسمح لنفسه بشىء من الترف ، وعامل الناس جميعا معاملة الزملاء لا أكثر ولا أقل ، وأنهك نفسه بكثرة العمـــل بأن يسر للناس مقابلته . ولم يكن ماركس بالسياسى العظيم ، فقد أنفق كثيراً من أموال الدولة فى الهبات النقدية التى كان ينفح بها الشعب والجيش ، ومنح كل فرد من أفراد الحرس البريتورى عشرين ألف سسترس . وزاد عدد الذين كان من حقهم أن يطلبوا الحبوب من غير ثمن ، وأكثر من الألعاب الباهظة النفقة ، وأعفى الناس والولايات من كثير من الضرائب والجزية المتأخرة . لقد كان هذا كرماً له سوابقه ، ولكنه كان عملا غير حكيم فى وقت كانت الثورات والحروب تهدد الدولة تهديداً لا يخفى على عين الحاكم البصير ، وكانت نيرانها مشتعلة بالفعل فى كثير من الولايات وعلى أطراف الحدود العظيمة الأمداد .

وواصل ماركس ذلك الإصلاح القانونى الذى بدأه هدريان وبذل فى ذلك الإصلاح كثيرا من الجد والنشاط . فزاد أيام جلسات المحاكم ، وقصر آجال

المحاكات ، وكثيراً ما كان يجلس بنفسه فى مجلس القضاء ، ولا يرحم من يرتكب جريمة من الجرائم الكبرى ، ولكنه كان فى العادة رحيما . وقد ابتكر وسائل قانونية لحماية عديمى الأهلية من جشع الأوصياء ، ولحماية المدينين من الدائنين ، والولايات من الحكام ، وغض الطرف عن عودة الجماعات الدينية التى كانت محرمة قبل عهده ، وبسط حماية القانون على الهيئات التى كانت فى حقيقة أمرها جماعات تعنى بدفن الموتى ، وأكسبها الشخصية المعنوية التى يحق لها بمقتضاها أن تقبل الوصايا ، وأنشأ صندوقاً لينفق منه على دفن الموتى من الفقراء . وبلغ عدد المستفيدين من نظام الألمنتا أى من الأموال التى خصصتها الدولة لتشجيع النسل بين الفلاحين أكبر عدد وصل إليه فى تاريخ هذا النظام كله . ولما ماتت زجته أنشأ صندوقاً لمساعدة الفتيات الفقيرات ، ولدينا نقش منخفض يمثل أولئك الفتيات وقد أحطن بفوستينا الصغرى وهى تصب القمح فى حجورهن . وألغى الاستحمام المختلط ، وحرم دفع أجور عالية للممثلين والمجالدين ، وفرض على ما تنفقه المدن على الألعاب قيوداً تحد من هذه النفقات وتجعلها متناسبة مع ثروتها ، وأوجب أن تكون الأسلحة التى يستخدمها المجالدون غير ذات أسنة ، وفعل كل ما تبيحه له هذه العادة الوحشيه أن يفعله لمنع قتـــل المصارعين . وأحبه الشعب ولكنه لم يحب قوانينه ، ولما أن جند المصارعين فى جيشه الذى سيره للحروب المركمانية Marcomannic قال الناس فى غضب فكه : « إنه يسلبنا أسباب سرورنا ، ويريد أن يرغمنا على أن نكون فلاسفة »(٤٩) . لقد كانت رومة تستعد للتزمت ، ولكنها لما تصبح مستعدة له .

وكان من سوء حظه أن شهرته فى الفلسفة ، وأن السلم الطويلة التى دامت أيام هدريان وأنطونينس ، قد شجعتا الثوار فى داخل البلاد ، والبرابرة فى خارجها ، على العصيان . فاندلعت نيران الثورة فى بريطانيا عام ١٦٢ ، وغزا التشاتى Chatti ألمانيا الرومانية ، وأعلن فلوجاسيز Vologases

الثالث ملك پارثيا الحرب على رومة واختار ماركس أقدر القواد لتقليم أظفار الفتنة فى الشمال ، ولكنة عهد إلى لوسيوس ڤيرس بالواجب الأكبر وهو محاربة پارثيا ، ولم يتجاوز لوسيوس فى زحفه مدينة أنطاكية ، لأن تلك المدينة كانت مسكن پانثيا Panthea التى بلغت من الجمال والتهذيب والثقافة حدا ظن معه لوسيان أن كل ما حوته آيات النحت من روعة قد اجتمعت فيها ، وأنها وهبت فوق ذلك صوتاً رخيما عذباً يسلب لب من سمعه ، وأناملَ تجيد العزف ، وعقلا ملماً بروائع الأدب والفلسفة . فلما رآها لوسيوس نسى كما نسى جلجميش متى ولد ، فأطلق العنان للذاته ، للصيد أولا ثم للدعارة بعدئذ ، بينا كان الپارثيون يزحفون على بلاد سوريا التى استولى عليها الرعب . ولم يعلق ماركس بكلمة على أعمال لوسيوس ولكنه أرسل إلى أڤديوس كاسيوس Avidius Cassius الذى يلى لوسيوس فى قيادة جيشه خطة للحملة كانت من الإتقان بحيث أعانت القائد القدير المحنك على صد الپارثيين إلى ما بين النهرين ، وإلى رفع الراية الرومانية مرة أخرى على سلوقية وطشقونة . وأحرقت المدينتان فى هذه المرة عن آخرهما ، لكيلا تتخذا مرة أخرى قاعدتين لحملات الپارثيين . وعاد لوسيوس من أنطاكية إلى رومة حيث أقيم له احتفال بالنصر ، أصر كرماً منه وشهامة على أن يشاركه فيه ماركس .

وجاء لوسيوس معه بالمنتصر الخفى فى هذه الحرب — وهو الوباء . وكان قد ظهر فى بادئ الأمر بين جنود أڤديوس حينما استولوا على سلوقية ، ثم انتشر بسرعة اضطرته أن يسحب أولئك الجند إلى بلاد النهرين بينا كان الپارثيون يطربون لأن الآلهة قد انتقمت لهم من أعدائهم . ونقلت الفيالق المنسحبة الوباء معها إلى سوريا ، وأخذ لوسيوس معه جنوداً من هذه الفيالق لتشترك فى موكب النصر ، فنقلوا العدوى إلى كل مدينة مروا بها ، وإلى كل صقع من أصقاع الإمبراطورية انتقلوا إليه فيما بعد . ويحدثنا المؤرخون القدامى عن فتك هذا الوباء أكثر مما يحدثوننا عن طبيعته ، ولكن ما يقولونه عنه

يوحى بأنه قد يكون مرض التيفوس الطفحى أو الطاعون الدملى(٣٢) . ويظن جالينوس أنه من نوع الوباء الذى فتك بالأثينيين فى عهد پركليز . وسواء أكان هذا أم ذاك فقد كانت بثرات سوداء تنتشر فى الجسم ، ويصاب المريض بسعال جاف مبحوح ، ويكون « نفسه ذا رائحة خبيثة »(٥٣) . وفشا الوباء سريعاً فى آسية الصغرى ، ومصر ، وبلاد اليونان ، وغالة ، وأهلك خلال عام واحد (١٦٦ — ٦٧) أكثر ممن أهلكتهم الحرب . ومات منه فى رومة ألفان فى يوم واحد ، ومنهم عدد كبير من أشراف المدينة(٥٤) ، وكانت الجثث تخرج منها أكواماً . وعجز ماركس عن مقاومة هذا العدو الخفى ، ولكنه بذل كل ما يستطيع ليخفف من شره ، غير أنه لم يجد معونة من علم الطب فى ذلك الوقت ، وجرى الوباء فى مجراه حتى أوجد فى الناس مناعة منه أو أهلك كل من حمل جراثيمه . وكانت له فى البلاد آثار يخطئها الحصر . فقد أقفرت كثير من الأنحاء من سكانها حتى أضحت صحارى أو غابات ، ونقص إنتاج الغذاء ، واضطربت وسائل النقل ، وأتلفت فيضانات الأنهار مقادير كبيرة من الحبوب ، وجاء القحط فى أعقاب الوباء . واختفت مظاهر البهجة التى امتازت بها بداية حكم ماركس ، واستسلم الناس للحيرة والتشاؤم ، وهرعوا إلى العرافين والمتنبئين ، وغمروا المذابح بالبخور والضحايا ، وطلبوا العزاء فى الملاذ الوحيد الذى أتيح لهم ، فى الدين الجديد دين خلود النفس والسلام السماوى .

وبينما كانت هذه الكوارث تجتاح البلاد فى الداخل جاءت الأنباء (١٦٧) بأن القبائل الضاربة على ضفاف الدانوب — التشاتى ، والقادى ، والمركمانى ، واللازيجى Lezygcs — قد عبرت النهر ، وفتكت بحامية رومانية عدتها عشرون ألفاً ، وأخذت تزحف على داشيا ، وريتيا Rretia ، وپاتونيا ، ونوركم ، وأن بعضها قد شقت طريقها فوق جبال الألب ، وهزمت كل الجيوش التى أرسلت لصدها ، وحاصرت أكويليا Aquileia (القريبة من البندقية) ، وأخذت تهدد ڤرونا Verona ؛ وتتلف الحقول الغنية فى شمالى إيطاليا . ولم تكن القبائل الألمانية

فى وقت من الأوقات أكثر مما كانت وقتئذ اتحاداً وتماسكاً فى زحفها ، ولم تهدد رومة فى يوم ما أشد من تهديدها إياها فى ذلك الوقت . وأقدم ماركس على العمل الحاسم بسرعة أدهشت الناس جميعاً ، فنبذ ملاذ الفلسفة ، وقرر أن ينزل بنفسه إلى الميدان ليخوض غمار الحرب التى تنبأ بأنها ستكون أخطر الحروب التى خاضتها رومة منذ أيام هنيبال ، وروع إيطاليا بتجنيد رجال الشرطة ، والمجالدين والعبيد ، وقطاع الطرق ، ومرتزقة البرابرة ، فى فيالقه التى حصدتها الحروب والأوبئة . وحتى الآلهة نفسها قد جندها لخدمة أغراضه : فقد أمر كهنة الأديان الأجنبية أن يقربوا القرابين إلى رومة حسب طقوسهم المختلفة ، وحرق هو نفسه من الضحايا على المذابح ما جعل أحد الفكهين يذيع رسالة بعث بها إليه ثيران سود ، ترجوه فيها ألا يسرف فى الانتصار وتقول فيها : «ما أشد خسارتنا إذا انتصرت»(٥٥) . وأراد أن يوفر المال اللازم للحرب دون أن يفرض لها ضريبة خاصة فباع بالمزاد العلنى فى السوق العامة ما فى القصور الإمبراطورية من خزانات الثياب ، والتحف الفنية ، والحلى . وأعد العدة للدفاع بعناية عظيمة — فحصن المدن القائمة على الحدود من غالة إلى بحر إيجة ، وسد الممرات الموصلة إلى إيطاليا ، وأغرى القبائل الألمانية والسكوذية بالرشا السخية على الهجوم على مؤخرة الغزاة . ثم درب جيشه ونظمه أحسن تدريب وتنظيم بجد وشجاعة تثيران أعظم الإعجاب لمجيئهما من رجل يكره الحرب . ثم قاد الجيش بنفسه فى حرب عوان وضع خططها بمهارة وقدرة حربية فنية ، وفك الحصار عن أكويليا ، وطارد المحاصرين وبدد شملهم عند نهر الدانوب ، حتى لم يكد ينجو منهم من القتل إلا من وقع فى الأسر .

ولم يكن يخفى عليه أن أعماله هذه لم تقض على الخطر الألمانى ، ولكنه حسب أن ما أدركه يجعل الموقف آمناً إلى حين ، فعاد مع زميله إلى رومة ؛ ولكن لوسيوس قضى نحبه فى الطريق بالسكتة القلبية ، غير أن الشائعات ، كالسياسة ، لا تعرف سبيلا إلى الرحمة ، فقالت إن ماركس دس

له السم . وقضى الإمبراطور الفترة الواقعة بين يناير وسبتمبر عام ١٦٩ فى رومة ليستريح من الجهود التى أضنت بنيته الضعيفة حتى كادت تقضى عليه ، وكان يشكو نزلة معوية كثيراً ما كانت تتركه ضعيفاً لا يقوى على الحركة . ولكنه عالج هذا الداء بالاقتصاد فى الطعام فكان لا يأكل إلا أكلة خفيفة فى اليوم . وكان الذين يعرفون حالته الصحية وغذاءه القليل يدهشون مما كان يبذله فى القصر والحقل من جهود ، كل ما يعللونها به أنه كان يعوض بعزيمته ما يعوزه من قوة جسمه . وقد استدعى إليه عدة مرار جالينوس البرجمى أشهر أطباء زمانه ، وأثنى عليه لبساطة ما كان يصفه له من العلاج(٥٦) .

ولعل ما توالى عليه من المتاعب المنزلية مضافة إلى الأزمات السياسية والعسكرية قد ساعد على اشتداد علته حتى أصبح شيخاً منهوكا فى الثامنة والأربعين من عمره . ولعل زوجته فوستينا ، التى ترى وجهها الجميل فى كثير من التماثيل ، لم يكن يسرها أن تشارك فى الطعام والفراش رجلا يكاد أن يكون هو الفلسفة متجسدة ، ذلك أنها كانت امرأة مرحة نشيطة ، تتوق إلى حياة أكثر بهجة مما تستطيع أن تهبها إياها فطرته الرزينة الوقور . غير أن النمامين فى المدينة كانوا يتهمونها بخيانة زوجها ؛ وهجته المسرحيات التقليدية الصامتة ووصفته بأنه ديوث ، بل ذهبت إلى أبعد من هذا فذكرت أسماء من ينافسونه على زوجته(٥٧) . لكن ماركس فعل ما فعله أنطونينس مع أمه فوستينا فصمت ولم يقل شيئاً ، ولم يكتف بالصمت بل عين عشاقها المزعومين فى مناصب عالية وأظهر إلى فوستينا كل دلائل العطف والاحترام ، وألّهها لما ماتت (١٧٥) وشكر فى تأصرته الآلهة لأنها وهبته « زوجة محبة مطيعة »(٥٨) . وليس لدينا قط دلائل ندينها بمقتضاها(٥٩) ، ولقد ولدت له أربعة أبناء ؛ كان يحبهم حباً لا نزال نحس بحرارته فى رسائله التى كتبها لفرنتو . وقد ماتت منهم بنت فى طفولتها ، وأما الثانية فكانت حياة لوسيوس سبباً فى حزنها ، ووفاته سبباً فى ترملها . وكان الاثنان الآخران توأمين ولدا

فى عام ١٦١ ، مات أحدهما أثناء ولادته ، وأما الثانى فهو كمودس Commodus ، وقالت ألسنة السوء إنه كان هدية إلى فوستينا من مجالد[٦٠] ، وقد ظل هو طول حياته يجاهد لتوكيد هذه القصة : لكنه كان غلاماً وسيما قوياً نشيطاً ، وكان ماركس يحبه ويحنو عليه حنواً بالغاً لا يستطيع أحد أن يلومه عليه ، وقدمه إلى الفيالق بطريقة ترمز إلى أنه سيختاره خليفة له من بعده. واستخدم خير المدرسين فى رومة ليجعلوه صالحاً للحكم . ولكن الشاب كان يفضل الشرب ، والرقص ، والغناء ، والصيد ، والمثاقفة ، ونشأت فيه روح الكراهية للكتب والعلماء والفلاسفة ، وهى كراهية نستطيع فهم أسبابها ، ولكنه كان يسر بصحبة المجالدين وهواة الألعاب الرياضية ؛ وسرعان ما بز جميع رفاقه فى الكذب ، والقسوة ، والألفاظ القذرة . وكان ماركس أشد طيبة من أن يبلغ من العظمة قدراً يستطيع معه أن يؤدبه ، أو يتبرأ منه ، وظل يأمل أن التعليم والتبعة التى ستلقى على عاتقه سيهذبان من طبعه ويغرسان فيه صفات الملوك . وأخذ الإمبراطور فى عزلته يهزل جسمه ، ويطول شعر لحيته دون أن يعنى به ، وتضعف عيناه من الهم والأرق ، ويولى ظهره إلى زوجه وولده ، ليعنى بشئون الحكم والحرب .

ولم تكن هجمات القبائل الضاربة فى وسط أوربا قد وقفت إلا إلى حين قصير ، ولم تكن السلم فى هذا الصراع القائم لتدمير الإمبراطورية وتحرير البرابرة إلا هدنة مؤقتة . ثم أقدم التشاتى فى عام ١٦٩ على غزو الأقاليم الرومانية عند مجرى الرين الأعلى ، وفى عام ١٧٠ هاجم التشوسى بلچيكا ، وحاصرت قوة أخرى سرمزجتسوسا ، وعبر الكتسباى جبال البلقان وانقضوا على بلاد اليونان ، ونهبوا هيكل الطقوس الخفية فى إلوسيس التى تبعد عن أثينة بأربعة عشر ميلا ، وغزا المغاربة أسپانيا من موطنهم فى إفريقية ، وظهرت لأول مرة على نهر الرين قبيلة جديدة تدعى اللنجباردي أو اللمبارديين . وكان البرابرة المخصبون يزدادون فى كل يوم قوة رغم ما منوا به من الهزائم الكثيرة ، بينما كان الرومان العقمون يزدادون ضعفا

ضعفاً . ورأى ماركس أن الحرب حينئذ حرب حياة أو موت ، يهلك فيها أحد الطرفين عدوه أو يذل له . ولم يكن فى وسع مخلوق أن يبدل نفسه تبديلا تاما من فيلسوف متصوف إلى قائد ناجح قدير إلا من نشأ نشأة رومانية عرف فيها معنى الواجب المقدس كما يفهمه الرواقيون . ولقد بقى الفيلسوف متخفياً تحت دروع الإمبراطور ؛ فبينا كانت هذه الحرب المركمانية الثانية (١٦٩ — ٧٥) حامية الوطيس ، وبينا كان ماركس فى معسكره المواجه لقبائل القاديين على نهر جرنا(*) Granna شرع يكتب ذلك الكتاب الصغير كتاب التأملات وهو أهم ما يذكره العالم به . وهذه الل[illegible]ى تكشف لنا عن قديس ضعيف غير معصوم من الزلل يقلب فى ذهنه مشكلتى الأخلاق والأقدار ، وهو يقود جحفلا عظيما فى صراع يقف على نتيجته مصير الإمبراطورية ، نقول إن هذه اللمحة لهى صورة من أدق الصور التى حفظها الزمان لأعاظم رجاله وأصدقها . لقد كان يطارد السرماتيين بالنهار ولكنه كان فى وسعه أن يكتب عنهم بالليل كتابة من يعطف عليهم : « إن العنكبوت إذا أمسك بذبابة ، ظن أنه أقدم على عمل عظيم ، وكذلك يظن من صاد أرنبا . . . أو أسر السرماتيين . . . أليس هؤلاء جميعاً لصوصا ؟ »(٦١) .

ولكنه رغم هذا ظل يحارب السرماتيين Sarmatians ، والمركمانيين ، والقاديين ، واليزجيين ، حربا عوانا دامت ست سنين طوالا ، ذاق فيها الأمرين . ثم هزمهم ، ودفع بفيالقه إلى الشمال حتى بلغت بوهيميا . ويبدو أنه كان يبغى أن يجعل سلاسل جبال هرسينيا Hercynian والكربات الحدود الجديدة للإمبراطورية . ولو أنه نجح فى تحقيق غرضه ، لكان من المحتمل أن تجعل الحضارة الرومانية ألمانيا ، كما جعلت غالة ، لاتينية فى لغتها ، ويونانية فى تراثها الثقافى ، ولكنه روع وهو فى أوج ظفره ، إذ علم

(*) وأكبر الظن أنه جران Gran أحد روافد الدانوب .

obeikandi.com

أن أفديوس كاسيوس قد أعلن نفسه إمبراطوراً بعد أن أخمد ثورة شبت فى مصر . وأدهش ماركس البرابرة بأن عقد معهم صلحاً سريعا ، واكتفى بأن ضم إلى الإمبراطورية شريطا من الأرض لا يزيد عرضه على عشرة أميال على ضفة الدانوب الشمالية ، ووضع حاميات قوية على الضفة الشمالية . ثم جمع جنوده ، وأخبرهم أنه يسره أن يترك مكانه لأفديوس إذا رغبت رومة فى ذلك ، ووعد أن يعفو عن الخائن المتمرد ، ثم سار إلى آسية ليواجهه . وحدث فى تلك الأثناء أن اغتال كاسيوس ضابط صغير ، وخمدت على أثر مقتله نار الثورة . واخترق ماركس آسية الصغرى وسوريا ، وجاء إلى الإسكندرية ، وحزن كما حزن قيصر لأنه لم تتح له فرصة يظهر فيها رحمته . وكان وهو فى أزمير ، والإسكندرية ، وأثينة يمشى فى الشوارع بلا حرس ، ويلبس عباءة الفلاسفة ، ويستمع إلى محاضرات كبار الأساتذة ، ويشترك معهم فى المناقشات ، ويتكلم اللغة اليونانية ؛ وأنشأ وهو فى أثينة أستاذية فى كل مذهب من المذاهب الفلسفية الكبيرة — الأفلاطونية ، والأرسطاطالية ، والرواقية ، والأبيقورية .

ووصل أورليوس إلى رومة فى خريف عام ١٧٦ ، بعد حرب دامت قرابة سبع سنين ، واستقبل فيها بموكب نصر عظيم حي فيه بأنه منقذ الإمبراطورية . وأشرك كمودس معه فى نصره ، وأجلسه ، وهو لايزال غلاما فى الخامسة عشرة من عمره معه على العرش . وكانت هذه هى المرة الأولى منذ قرن من الزمان التى لم يراع فيها مبدأ التبنى ، والتى عاد فيها مبدأ الوراثة . ولم يكن ماركس يجهل الخطر الذى سيحيق بالإمبراطورية من جراء فعلته هذه ، لكنه فعل ما فعل لأنه رأى أن يختار ضرراً أخف من ضرر الحرب الأهلية التى يخشى أن يخوض كمودس وأصدقاؤه غمارها إذا حرمه من العرش . وليس من حقنا أن نحكم عليه بعد أن عرفنا عاقبة فعلته ، كما أن رومة لم تكن تتوقع عواقب هذا الحب الأبوى . ذلك أنها كانت قد نسيت فتك الوباء بأهلها ، وأخذ أبناؤها يذوقون طعم السعادة من جديد ، يضاف إلى هذا أن العاصمة لم تقاس إلا القليل من ويلات الحرب التى

(شكل ١٢) « كليتى » فى المتحف البريطانى

Obeikandl.com

دبر لها ما يلزمها من المال تدبيراً روعى فيه الاقتصاد الشديد ، ولم يفرض عليها فيه إلا القليل الذى لا يستحق الذكر من الضرائب الإضافية ؛ وبينا كانت نار الحرب مشتعلة عند الحدود ، كانت التجارة رائجة فى داخل المدينة ، وكان رنين النقود يسمع فى كل مكان فيها . لقد بلغت رومة فى ذلك الوقت أوج عزها ، وبلغ حب الشعب للإمبراطور غايته ، وحياه العالم كله ، وكان فى نظره جنديا ، وحكيما ، وقديسا فى وقت واحد .

ولكنه لم ينخدع بهذا النصر المؤزر ، فقد كان يعرف أن مشكلة ألمانيا لم تحل بعد . وكان على ثقة من أن الإمبراطورية لن تستطيع صد الغزوات فى المستقبل إلا إذا اتبعت سياسة نشيطة دفعت بها حدودها إلى جبال بوهيميا . ولذلك أقدم كمودس فى عام ١٧٨ على الحرب المركمانية الثالثة ، واجتاز نهر الدانوب وهزم القاديين مرة أخرى بعد حملة طويلة قاسية ، لم يلق بعدها مقاومة . وأوشك أن يضم إلى الإمبراطورية بلاد القاديين ، والمركمانيين ، والسرماتيين (وهى بوجه التقريب بوهيميا وغاليسيا المجاورة لنهر الدانوب) ، ويجعلها ولايات جديدة تابعة للإمبراطورية . ولكن المرض انتابه وهو فى معسكره فى ڤندوبونا Vindobona (ڤينا) . ولما أحس بدنو أجله ، دعا كمودس إلى جانبه ، وأنذره أن يواصل السير على الخطة التى أوشكت أن تثمر ثمرتها ، ويحقق حلم أغسطس ، ويدفع حدود الإمبراطورية إلى نهر الإلب(*) . ثم امتنع عن الطعام والشراب ، ومرت به وهو على هذه الحال خمسة أيام ، وفى اليوم السادس استجمع آخر ما كان عنده من قوة ، ووقف على قدميه ، وقدم كمودس للجيش على أنه الإمبراطور الجديد . ثم عاد إلى فراشه ، وغطى رأسه بملاءة الفرش ، وأسلم الروح بعد قليل . وقبل أن يصل جثمانه إلى رومة ، كان أهلها قد عبدوه واتخذوه إلهاً رضى أن يعيش على الأرض زمناً قصيرا .

(*) يقول مسن Mommsen المعروف بنزاهته « ليس من حقنا أن نكتفى بالاعتراف بصدق عزيمة الإمبراطور وصلابته ، بل إن علينا فوق ذلك أن نقر بأنه قد فعل ما توجبه عليه السياسة الرشيدة »(٦٢)